صخر المهيف

العنزة لولو

قصص



سلسلة إبداع

منشورات
وزارة الثقافة

العنزة لولو : صخر المهيف
الإيداع القانوني : 20072033
ردمـــك : 9954-0-4113-3
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2007

سلسلة إبداع

العنزة لولو

صخر المهيف

الجاسوسة

غادر مكانه غاضبا واتجه نحو الكونطوار ليحضر ماءا باردا، كان النادل يصفي الحساب مع بعض الزبناء في الخارج وهم يهمون بالمغادرة ّ وما لبث الرجل أن استوى في جلسته وقد ارتوى ثم اتجه صوب مخاطبه محدقا، كان الآخر ينظر إليه باهتمام وقد بادره قائلا:

_إني أستمع إليك.

-أنا حائر.

فرد عليه:

-ما الخطب ؟

-زوجتي تتجسس علي ؟

-تتجسس عليك ؟ ! لماذا ؟

-عيناها لا تكفان عن الشك بي.

-ربما كنت واهما يا صاح.

-أنت لا تعرف شيئا..فقد اضطرت إلى إغلاق درجي مكتبي بالمفتاح .

ثم صاح منفعلا:

-أتشك في كلامي ؟

-كلا كلا يا عزيزي، إني لا أتغيا غير مساعدتك.

-طيب.

_أقترح عليك أن تجيب عن بعض الأسئلة، ربما توصلنا إلى حل لمشكلتك وقد عرفنا مكمن الداء.

-سأجيب بما يسمح به المقام.

-أكنت تنشد الحب أم الزواج ؟

مـال نحوه مندهشا:

- لماذا ؟

-لقد وعدتني.

-الإثنين يا رجل!

-لقد طلبت الكمال !أنت طماع.

-ألا أستحقه ؟ فلم لا أطلبه.

-قد نلت ما طلبته.

-مَا أشقاني بزوجة لا تثق بي.

-ألا تكون مبالغا في دعواك ؟

-لقد قرأت عينيها يا رجل ، ألا تفهم ؟

-وهل للعيون أبجديات.

-إني لا أمزح.

-مَا ذنبها إذا كانت تغار عليك؟

-أصغ إلي ولا تقاطعني.

-سامحني مادمت متعودا على تفاهاتك!

-تعودت أن أدخل البيت في الأيام الأخيرة ، فتقابلني ببرود وشيء من الجفاء، قلت لنفسي إنها في أزمة عابرة ولم ألق للأمر بالا حتى استفحل الوضع ذات مساء لما عدت إلى البيت ووجدتها تنتظرني كالعادة، لكنها في هذه المرة طفقت ترنو إلي بعينين جامدتين لا يرتجف لهما جفن ، أطل الحزن من شرفة عينيها متوهجا، لذلك خمنت أني أخطأت في حقها دون أن أدري.

-ما أعرفه حق المعرفة، أنك كثير الحماقات .

-دون أن ترد على تحيتي أسرعت لتحضر اللمجة، شعرت بالارتباك يعتمل في داخلي، عادت وجلست بجانبي دون أن تنبس ببنت شفة، طبعا، فقد تذرعت بالصمت وقد ألفيتها ترنو إلي بطرف عينها تارة، وإلى

المزهرية الجاثمة هناك بالقرب من الباب تارة أخرى، راودني إحساس غامض لكنه صادق بأنها تريد أن تحضنني وتشنقني في ذات الوقت.

-لعلها العادة الشهرية!

-كلا.

-لم أفهم شيئا.

قالها ثم هز رأسه وتمتم:

-أتسمح لي بأن أسألك مجددا..

-تفضل ! دون سخافات من فضلك.

-أنت تعتقد بأن زوجتك جاسوسة.

-ما في ذلك شك.

-طيب، أتسترق منك السمع حينما ترد على الهاتف ؟

_كلا.

-هل ضبطتها يوما تبحث في ذاكرة هاتفك المحمول عن اسم أو رقم ؟

-مطلقا.

-هل سبق أن زارتك في مقر عملك على حين غرة منك ؟

-لا أذكر.

-أجب بنعم أولا.

-كلا.

-هل سبق لها أن تبرمت بأي مكالمة تكون قد وردت عليك من إحداهن ؟

-لا، هي تعرف قبل الزواج أني بحكم موقعي، أعرف نساء كثيرات واتصالاتهنّ بي لن تنقطع ، وتفهمت الوضع.

-هل حاولت ذات مرة أن تثنيك عن الخروج ؟

-لم تفعل يوما ما، ثم إني آخذها إلى أغلب الملتقيات التي أدعى إليها.

-لقد حيرتني، فأنت زوج سعيد دون أغلب المبدعين من معارفنا.

_إني لا أرى رأيك.

-وأنى لك ذلك وأنت الأعمى... أقصد أعمى البصيرة .

-عليك اللعنة.

-خذ مثلا صديقنا الثخين. فزوجته تطلب منه أن يتخلص من أي رقم يعود للنساء . لا يهمها أن تكون المعنية صحافية تود أن تجري حوارا مع زوجها أو ناقدة يهمها أن تتعرف إلى تجربته عن قرب في مرسمه ، يجب أن تشكر الأقدار يا رجل،

فصديقنا لا حق له حتى في قنينة جعة...

-بخصوص هذه النقطة ، فقد عرفتني زوجتي سكيرا قبل الزواج ، إن أقصى ما تفعله هو أن ترجوني أن أشرب بالقرب منها إذا كنت راغبا في الشرب، وأذعن لرغبتها في الغالب الأعم، فتهيئ لي كل شيء : الموسيقى التي أعشقها والسمك المقلي إضافة إلى الفجل والزيتون الحامض المخلل والكاوكاو ، وإذا كانت الميزانية تسمح ، بالأخص عند بداية كل شهر ، تشوي الكفتة على نار هادئة ثم تقوم للرقص.

-هذا ما نسميه نحن الحداثة في أبهى صورها.

-هراء.

تابع قوله:

-حداثة معجونة بروح شرقية عتيقة .!

-سمها كما شئت.

-وماذا عن الفراش ؟

-يا ملعون!

-عليك أن تجيب بوضوح.

-يحدث النزال كل ليلة تقريبا .

-تقريبا يا حيوان.

رد بزهو:

-أجل.

-لازلت مرتابا.

-لم أقل كل شيء بعد. ففي ذلك المساء المشؤوم، انتظرت حتى أفرغ من تناول اللمجة حتى تواجهني بالسؤال عن امرأة خاطبتها بالسمراء.

-هل ضبطتك متأبطا ذراع إحداهن ؟

-ليس من شيمي أن أخون زوجتي، وليتها كانت زوجتي فحسب.

-هل سألتك يوما فيم تنفق أموالك ؟

-ولم تسألني ؟ إني أضع بين يديها كل أجرتي الشهرية وأسحب منها ما أريد دون مشاكل فكان جزائي أن تتجسس علي ؟

-يالها من مأساة.

-إني لا أمزح.

-تكاد تصيبني بالجنون.

-عندما يظهر السبب ، يبطل العجب.

-ربما ؟

-ما إن نظفت الطاولة حتى جلست أمامي القرفصاء على الأريكة، ولم تلبث أن هرعت إلى غرفة النوم وأحضرت ورقة رمت بها إلي ثم طلبت مني أن أقرأها بصوت عال، من المضحك أني نسيت أن أسألها كيف حصلت عليها . أذعنت وشرعت أقرأ بصوت مسموع لا ينقصه إلا الارتجاف، أخرجتني من حالة خشوع احتوتني كل الاحتواء. صاحت بأعلى صوتها وعيناها تلمعان بحدة كأنها ضبطتني متلبسا بالجرم المشهود ثم نزعت مني الورقة.

-توقف من هي التي تتوجه إليها بالحديث في هذا الشطر:

بأناملك السمراء
لا تقربي رسائلي
إن لمستها.
أحرقتك شراره

وأبتلعك سري
إلى حيث لاقراره

قلت لها بذهول:
-أعني شرارة
ردت ممتعضة:
-قد آلمتني.
ثم ألقت بالورقة على المائدة .
-قد أحرقتني.
فصحت محتجا:
-إنه شعر. ألا تفهمين ؟ هو شعر يؤول ولا يفسر!
جحظت عيناها، بدت غير مقتنعة بإجابتي. استفزتني نظراتها فصرخت بأعلى صوتي:
-إنه خيال.
بيد أنها تمادت في غيها وعلقت بصوت غاضب أكثر حدة:
-أثمة خيال لا يركن إلى واقع ؟
-لم أعلم أنك صرت من كبار نقاد الأدب!
-لا تغير وجهة الحديث . ألم تنبئني أن الواقع منبع ثر للخيال ؟
-علمته الرماية . ولما اشتد ساعده رماني.
-لا تتهرب.
-ألم تسمعي بمذهب في الأدب يعتقد بالفن من أجل الفن.
-لا تناور، فأنت لا تنتصر لهذا المذهب وكثيرا ما تبرمت بدعاته.
-لنستنجد إذن بنقاد الأدب. علهم يفصلون بيننا.
انتفضت واقفة وقد نفشت شعرها كما يفعل الديك عندما يشعر بالزهو، جحظت عيناها المصوبتان نحوي مثل المدفع.

-كف عن السخرية وأخبرني عمن تكون السمراء الملعونة . هذه المرة سأكتب أنامل شقراء.

-لازلت تحن إلى زميلتك إذن..

-لقد انتهى أمرها، انتهى . حتى إني لا أعرف أي جحيم آل إليه مصيرها بعد تخرجها أتفهمين ؟

-لا تخدعني. إن أناملي ليست سمراء.

-اصمتي، لا تفضحينا أمام الجيران.

-ليسمعوا..

ثم قربت أناملها من مرمى بصري، بصرتها بنظرة عابرة ثم حولت نظري إلى اتجاه آخر وقلت متذرعا بالهدوء . كان لابد من أن أقوم بهجوم مضاد.

-من سمح لك بفتح درج مكتبي ؟

-لماذا لم تعد تقرأ علي قصائدك ؟

-هل هذا ضروري ؟

عادت إلى هدوئها .

-أجل.

-من الآن فصاعدا سأغلق درج مكتبي بالمفتاح.

-سأكسره.

استبد بي غضب جامح وأخذت ذراعها بقبضة يدي، فصرخت من الألم، وجدتها فرصة لأفرغ ما تراكم في نفسي من توتر وصحت فيها:

-سأكسر ضلوعك، افهمي أن هذه القصيدة كتبتها خصيصا لصديق ملحن.

قالت بعدما تخلصت من قبضة يدي وابتعدت عني...

-منذ متى صرت تكتب تحت الطلب ؟

ذا أنت ترى يا صديقي أي تعاسة أعيش، تعاسة بحجم القرف، حتى إني اضطررت ذات يوم إلى حذف اسم شهيدة لبنانية من إحدى قصائدي تقية وتورية. وكانت هذه الشهيدة قد فجرت عام 1982 قافلة عسكرية للجنود الصهانية في الجنوب اللبناني، فغسلت عارنا وقتلت العشرات من قوات العدو.

-ولماذا حذفت اسمها ؟

-اسم الشهيدة يطابق اسم جارتنا الجميلة... المطلقة .

-وهذه مشكلة أخرى.

-عويصة.

-بيد أنك مخطئ .

-لا تتجن علي يا صديقي.

-ما كان لك أن تخبرها عن ماضيك.

-لا يمكن أن يعود الزمن إلى الوراء لتفادي الأخطاء.

-ما كل شيء يقال للمرأة.

-لا راد لقضاء... لا أعرف كيف أخذت شعرها بين يدي بعدما وجدت من تماديها ما جعل الدم يغلي في عروقي، رمقتني بخوف، دفعتها بعيدا عني وكسرت المزهرية حتى لا أكسر جمجمتها، صفقت الباب بعنف وتركتها تبكي وأنا ألعن أول يوم التقينا فيه.

-هكذا تكون رقة الشاعر وإلا فلا.

-ما كان سفك الدماء يمنع عنترة من أن يتغزل بعبلة، ألا ترى غزله من أرق ما نظمته العرب؟

-يا لك من مفتر.

-هي السبب، فقد مسكت نفسي أكثر مما ينبغي. إن قلبي يرق لها كلما رأيت في نفسي شدة، لكنها في هذه المرة تمادت في غيها، وجعلتني أغادر البيت في منتصف الليل. استضافني صديقنا الأعزب، ما أحلى العزوبية يا صديقي. لقد استمتعت في ضيافته بالخمر والسهر كل المتعة. لا أخفي عنك أنني كنت أزداد شوقا إليها كلما مر الوقت.

-أرجو أن تكون المياه قد عادت إلى مجاريها.

-ما إن وضعت المفتاح في قفل الباب حتى هرعت إلى فتحه، رأيت الدمع محتقنا في عينيها لم يجر، قبلتها، تعانقنا، كان صمتها مطبقا وشعرها ناعما يبرق تحت أنوار خافتة وعطر جيدها فواحا، جلست في البهو، أما هي فاقتعدت بجانبي ولم تكف عن التحديق بي كأنها كانت تستكشف في ملامحي شيئا غاب عنها وما لبثت أن اختفت بعض الوقت في غرفة النوم قبل أن تلتحق بالمطبخ وتحضر لي العشاء، ظلت صامتة، باتت تمدني بأجود ما في الطبق، اعتنت بي كطفل صغير تاه عن أمه وهي تأخذ ملابسي إلى آلة التصبين، وما إن غصت بأناملي في أدغال شعرها حتى أرخت رأسها إلى الوراء فلامست رقبتها راحة يدي وبدت لي كأنها تتأمل الثريا المعلقة في سقف البهو، طفقت أقرأ لها قصيدة قديمة كانت تعرف أنها كتبت لها، أصغت إلي باهتمام شديد، عبثت يمناي بأذنيها ثم حضنت خدها، وصلتني أنفاسها متقطعة حارة جيشت عواطفي المتأهبة أصلا للانطلاق ولثمت شفتيها برفق بعدما غطيتهما بإبهامي، قامت هي بفتح أزرار قميصي ووضعت رأسها على صدري ثم طوقتني بذراعيها، لم تنس أن تسألني:

-هل كتبت قصيدة جديدة؟

قالت ذلك ثم مدت يدها إلى القاطع الكهربائي وضغطته، لم نغادر الأريكة حتى الصباح وغابت المزهرية لأول مرة منذ زواجنا.

الحمار

-كيف كانت بدايتك في الميدان السينمائي؟

-ثمة أشياء طريفة بودي أن أحدثك عنها ليتعرف إليها الجمهور، حتى يدرك مدى تعاستنا نحن معشر الممثلين. ولكن لا بأس من أن أعرج قليلا على زمن البدايات، ففي الحديث عنها ما يجلب السلوى إلى النفس، ذلك أنني لما طرقت أبواب هذا العالم الساحر، ومنيت النفس أن أوفق في مسعاي، جازما بأن كل شيء سيسير على ما يرام. كنت أكثر الناس تفاؤلا وأشدهم ميلا إلى تصديق ما يلقى هوى في نفسي.

بيد أن لا شيء حدث من ذلك، فبعد انتظار مضن دام ثلاثة شهور دون أن يسفر عن شيء، اضطررت إلى الاشتغال بالتجارة في السلع المهربة. ثم نادلا في أحد المطاعم الشعبية، حتى كدت أنسى أنني خريج قسم التمثيل إلى أن جاء ذلك المساء حين وصلتني رسالة من أحد المخرجين، وكنت قد تعرفت إليه لما كنت طالبا في المعهد، يدعوني فيها لأداء دور صغير في فيلمه الجديد، كانت فرحتي عارمة. قفزت إلى أعلى مرات كثيرة حتى اشتكى الجيران لأمي متسائلين عما يجعل السقف يهتز فوق رؤوسهم، فقد كنت مؤمنا بأنها البداية فقط.

أسرعت إلى منزل عمي، واقترضت منه خمسمائة درهم زادا للسفر، اكتريت بذلة زرقاء داكنة مناسبة للدور الذي سألعبه، تمّ ذلك بناء على طلب المخرج، هو السعد يطل من شرفة الفجر وقد كان حريا بي أن أهدهد به أرجوحة الزمن تلك إلى أقصى مدى حتى كادت تتخطى حدود اليقظة في سفر إلى حيز لا حدود له ولا أبعاد، فكان أن خرجت مع صديقتي إلى أجمل حدائق المدينة، فيها تناغمت حواسنا، افترشنا الخضير أمام قبة البرلمان، السماء التي كانت صافية فوقنا لم تتزحزح من مكانها و الطيور

التي كانت تملأ الأشجار بشدوها تشرئب بعنقها إلى ما كنت أحمله من أوراق. قلت لصديقتي:

-أخيرا سأظهر في السينما.

أطلقت صرخة فرح عارمة ثم شدتني من ذراعي بلهفة:

-حقا؟!

-سأتوجه بعد غد إلى وارزازات.

أخذ الحلم يدغدغ عواطفي وصارت الأماني تحلق بي إلى الأعالي. وفجأة. وكمن استنفذت ذخيرتها من الحلم. أسرعت الخطو ولم تلتفت إلي ثم قالت:

-عليك بشراء حذاء وسروالا جديد.

وأردفت عندما توقفت عند نخلة ومدت إليها ذراعها ثم انكفأت برأسها محدقة في:

-سيكون لك شأن. فلا تنسني عندما تسلط عليك الأضواء.

لكنني لم أعمل بوصيتها، لم أكن أعلم بأن الأضواء عندما تسطع بقوة، فإن القلوب غالبا ما تعمى.

_ما الذي ميز أجواء تصوير أول أعمالك؟

-دعني أقول لك بأن التوتر كان يسود بين العاملين بين الفينة والأخرى، لكن ذلك لم يعقنا عن إتمام مهمتنا، ومن ذلك أنني قبل بداية التصوير بيوم واحد، سلمني مساعد المخرج ثلاث صفحات وطلب مني قراءتها وحفظ الحوار المكتوب فيها، وهو حوار يخص شخصية التاجر التي سأتقمصها، تبينت أنها من السيناريو ذي المائتي صفحة، اعتقدت بأن مساعد المخرج نسي أن يمدني بالنسخة كاملة حتى يمكنني الإطلاع عليها من الإحاطة الشاملة بحكاية الفيلم وشخوصها والحيز الذي تدور فيه أحداثها والرسالة التي تحملها للمتلقي حتى أتمكن من استيعاب دوري جيدا، لكنه بادرني بالقول:

-ذاك يكفي، أتظن نفسك في هوليود؟

قلت بعصبية:

_أجل،

_هذا غير معقول.

توترت أعصابي، تدخل مدير التصوير لحسم الخلاف، وتفضل المخرج وقدم لي ملخص قصة الفيلم، فوجئت بأن السيناريو والحوار مكتوبان باللغة الفرنسية، أما ترجمة الحوار، فكانت تتم في البلاتو قبيل التصوير، وقد حفظت الحوار بسرعة، ولما نودي علي ارتجف قلبي، وقفت داخل الدكان ببذلتي الزرقاء الداكنة، ألقيت جملة واحدة وانتهى عملي في ذلك اليوم، غير أني لاحظت بأن المخرج لم يطالب بإعادة تصوير أي لقطة، كان يكتفي فقط بإصدار الأوامر، وبدلا منه يقوم التقنيون باختيار زوايا التصوير. وقد كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأن المشهد الذي ظهرت فيه، كان ينبغي أن يصور في ثلاث لقطات بدل لقطة واحدة وذلك لأن هذا المشهد يجسد لحظة حاسمة في سياق حكاية الفيلم، كما أنه يمثل انعطافا مهما في حياة الشخوص الرئيسة، وقد دلفت إلى المخرج لهذا السبب وقلت له:

-يستحسن أن تأخذ لقطة بعيدة للدكان قبل أن تلتقط لقطة متوسطة وأخرى صغيرة لهذا المشهد.

لم يكلف نفسه عناء الرد مما بعث الحماس في نفسي وجعلني أتابع حديثي باندفاع:

-ذلك سيخدم الفيلم من الناحية الجمالية وسيبعث فيه روح التشويق.

نظر إلي مقطبا وصاح غاضبا:

-ماشي شغلك.

-مجرد اقتراح.

ألفيت المخرج لا يعيد تصوير اللقطات إلا نادرا، ودهشت كثيرا لما أنجزنا الفيلم في ستة وعشرين يوما فقط، ولم أندهش لما علمت أن أحد

أصدقائه أعاره الفيلا، وقد ادعى كذبا أنه اكتراها وضمن ذلك الافتراء ضمن بيانات المصاريف، هذا الكلام أضعه بين قوسين، على أن أفتح أقواسا أخرى بعد ذلك. فقد أويت إلى الفندق متشنج الأعصاب بعد الذي وقع مع المخرج، كدت أشتمه بكل ما أعرفه في قاموس السباب لولا خوفي من المستقبل إذا تفشت سيرتي بين المخرجين فلا ينادي علي أحد منهم للعمل معه بعد ذلك، ولأقربك يا عزيزي أكثر من الصورة، فسأسرد عليك تفاصيل أخرى لعلها تجدي نفعا في إضاءة بعض العتمات، أذكر أنني استرخيت طويلا في الغرفة استدرارا لتركيز مفقود، وعلى حين غرة مني، دخل علي مهندس الصوت الفرنسي صحبة عجوز مغربي وطلبا مني أن أصحبهما إلى فندق النجمة، هناك اقتعدنا في ركن قصي بالقرب من المسبح وكانت بجانبنا نخلة سامقة تحيينا. حدثنا العجوز عن ذكرياته الغابرة مع مخرجين أجانب عمل معهم. اقترب برأسه مني وكأنه يفضي إلي بسر خطير:

-سبق لي أن اشتغلت في فيلم كلادياتور وكنت أتقاضى مائتي درهم لليوم الواحد، ولم يكن معي حمار.

سألته بفضول:

-وكم تتقاضى الآن؟

-أربعون درهما، هذا دون احتساب أجرة الحمار.

-والحمار؟

ابتسم وهم بالإجابة عن سؤالي لولا أن مر بجانبنا رهط من الأجانب ، عرفت من لغتهم أنهم من الجرمان وكان العجوز على معرفة بهم، تبادل معهم التحية، ثم سرقت الشيخات انتباهنا عندما شرعن في الرقص، ظهر المخرج بغتة ومعه بطلة الفيلم ومدير التصوير الفرنسي، كان مساعد المخرج حاضرا أيضا، بات ينظر إلى الأضواء المنعكسة على صفحة ماء المسبح تارة، وإلى الممثلة تارة أخرى، شرب بنهم، ولما انبعث صوت

الموسيقى الهادئة، وترك الشيوخ و الشيخات مكانهم، وجدت الممثلة نفسها واقفة تنحني برأسها على كتف المخرج. أما يده اليمنى فأحاطت بخصرها وتشابكت يسراه بيسراها، والتصق اللحم باللحم والتفَّتِ الساق بالساق.

-وماذا عن أجرك؟

-عن أي أجرة تتحدث؟ سأعود بك أولا إلى زمن مضى . إلى فندق النجمة. هناك وقعت على أول عقد عمل للسينما بأجرة خمسين درهما لليوم الواحد. إضافة إلى ستمائة درهم هي مصاريف التنقل. ليلتها بت هانئا، أخذت أخطط لما سأفعله بالمال. فكرت بداية في شراء تذكار لصديقتي وثوبا لأمي وبلغة لأبي. لكن مزاجي تعكر لما تذكرت أن ديونا يجب علي قضاؤها لعمي، وفي غمرة التفكير، نسيت أ ن أسأل العجوز عن أجرة حماره.

-كيف سارت الأمور بعد ذلك؟

-بكل صراحة. إني أراها الآن بشكل مختلف. فقد سلطت الصحافة أضواءها علي بعد مشاركتي في المسلسلات السورية. أعترف لك بأن أدائي تطور كثيرا بفضل المخرجين السوريين وصرت بعد ذلك أفرض شروطي على شركات الإنتاج.

-ما هو أغرب شيء مر بك في مسارك الفني؟

-أثناء مشاركتي في أول عمل سينمائي، كان الأستوديو مجهزا بمدود حمار في زاوية قصية. رأيت حمار العجوز أنيقا بعنقه المشذب على الدوام وبردعته المزركشة، وخلافا لإخوته وأبناء عشيرته، فقد وضع صاحبه لجاما جديدا في فمه. كالتي يلجم بها الفرسان جيادهم، وكان ينعم فوق ذلك بكمية وافرة من الشعير، وأذكر أنه كثيرا ما كان يقطع الصمت السائد بنهيقه المسترسل ولم يكن يتوقف إلا بإذن من العجوز، وقد أحببت الحمار فعلا، كان لطيفا، لكن الجفاء ساد بيننا عندما اقتربت منه ذات مرة محاولا إقناعه بالتوقف عن إرسال نهيقه، أطاع أمري أمام استغراب الجميع، شعرت بالزهو بعد أن نعتني أحدهم بماوكلي وشبهتني بطلة الفيلم بطرزان، أما

هو فأرخى أذنيه الطويلتين وصوب نحوي نظراته ثم استدار إلي بمؤخرته وركلني في ركبتي ما ألزمني الفراش يومين متتابعين، استأنف النهيق بقوة، اضطر المخرج إلى إبعاده خارجا. فالعجوز لم يقنعه لأنه كان غائبا.

ولما جاء العجوز في المساء ليعودني، أعرب لي عن أسفه الشديد عما بدر من حماره ومتمنياته لي بالشفاء العاجل، وجدتها فرصة مناسبة لأسأله:

-كم تتقاضى عن حمارك؟

رد العجوز غاضبا:

-بل قل كم يتقاضى حمارك؟

فقلت وأنا أشد على ركبتي من شدة الألم:

-وكم يتقاضى حمارك؟

أجاب بزهو:

-ثمانون درهما.

ليلـــــــة رديـــــــئة

انطلقت السيارة بسرعة، لم يمنعه الضوء الأحمر من التوقف لحظة واحدة في مفترق الطرق. بدا له منذ البداية أنها غير راضية عن الوضع الجديد أو هكذا بات يخمن قبل شهر تقريبا. تفرست في وجهه قليلا ثم مالت برأسها على المقعد الجلدي، خيم صمت في الداخل أول الأمر، وحده المحرك دار مزاحما نغمات الموسيقى المنبعثة من الراديو، طفق ينظر إليها من حين لآخر دون أن يتحرك لها جفن صوبه، لما وضع أنامله على ركبتها، رموش عينيها مالت إليه، كان هو مبتسما. لم تبرح البسمة محياه، لم ترد عليه حين همس لها:

-لازلت جميلة.

استمر وجومها كما كان في البداية. وضعت أناملها فوق أنامله تتحسسها. ضغطت عليها تستجدي الدفء وفي داخلها غموض لا تنجلي نواميسه بسهولة في المدة الأخيرة على الأقل، وضعت رأسها على كتفه اليمنى وأغمضت عينيها كأنها استجدت رغبة لا تقاوم في الرقص، حاولت أن تسبح بعيدا في يم الصمت لكن رحلة الصمت هاته عرفت نهايتها بمجرد ما أن توقفت السيارة فجأة، عدلت جلستها، أنفاسه وصلت إليها متقطعة، رمقته يمسك بالمقود بكلتي يديه.

-ماذا حصل ؟

غادر السيارة، رفع غطاء المحرك ثم عاد بعد برهة، أطل عليها من النافذة، ابتسم قائلا:

-نفد البنزين.

-كان عليك أن تنتبه قبل أن نركب السيارة.

-لقد حصل ما حصل.

تبادلا نظرات حائرة، أراد أن يخفي حنقه تحت رداء من الهدوء المصطنع .

اتجه إلى حارس ليلي كان متواجدا على الطوار الآخر. ظن هذا أنه يريد سيجارة شقراء، رجاه أن ينتبه إلى زوجته وسيارته ريثما يعود، هي كانت جامدة متكومة على المقعد، قبل أن يقرر السهر معها خارج المنزل، عاد ولم يقلع سترته كما تعود أن يفعل دائما من قبل عند كل عودة من العمل. جلس على الأريكة وشرع يرقبها في غدوها و رواحها بين الأرجاء، بادرها بقوله لما مرت أمامه:

-في هذه الليلة، سنتفرج على مسرحية.

منحته ابتسامة، اتجهت على التو إلى غرفة النوم، شرعت تطوي الملابس بسرعة قبل أن تضعها في الدولاب . تركت خصلات من شعرها الأشقر يتدلى على جبينها الأسمر، تقدم ليساعدها اختصارا للوقت كما اعتقد هو، لمست المرآة بأناملها،اجتمعت صورتهما معا داخلها، كانت أشياء كثيرة قد تغيرت فيهما لكنهما أصرا على أن يتجاهلا وجودها في حياتهما.

-شيء ما غير عادي حدث هذا اليوم ..

-ستسرين لما تشاهدين المسرحية.

-لم تعد كما كنت.

-هذا في خيالك فقط.

-أتمنى أن أكون مخطئة.

قبل أن ينطلق الاثنان، قال لكريمته أن تهتم جيدا بدروسها، قبل ابنه الصغير ولم ينس أن يطلب منها مساعدة الشقيق الأصغر على إنجاز واجباته المدرسية وأن تهتم به، أرشدت ابنتها إلى مكان الوجبة في الثلاجة، لم ينس أيضا أن يغلق باب المنزل بالمفتاح، توالى صدى وقع قدميهما على درج العمارة، لمس أناملها برفق، الحنين إليه لا يلبث أن يزدهر كلما أحست أنه انشغل عنها، مال نحو جيدها ليقبله، طوق خصرها بذراعيه، ذلك ذكره

بماض جميل كانت هي بطلته، علقت على ذلك بابتسامة هادئة:

-منذ سنتين لم نخرج معا.

-يجب أن أضمن للأولاد مستقبلا مريحا.

-لكنك ابتعدت عني .

-لا أظن.

-لا أريد من المنصب الجديد أن يبعدك عني.

أدار مفتاح السيارة، جمدت كأنها تعد الأنفاس، لم تقل شيئا إلى أن توقفت السيارة في ذلك المكان.خرجت من بحر الخيال لما لمحته قادما من الطوار الآخر. قال لها:

-يبدو أننا سنبيت الليلة داخل السيارة.

-ألم تعثر على تاكسي ؟

انصرف مرة أخرى، داهمها القلق، ودت لو أنه لم يذهب. شعرت بأنه لن يعود إليها وبأنها فقدته، لم تدر سببا لهذا الشعور المفاجئ، كانت في حاجة إليه ولما غادر التاكسي وفي يده قنينة بيضاء ودت لو عانقها وقبل شفتيها بيد أنه لم يفعل، ضخ البنزين في الخزان ثم رمى بالبرميل بعيدا بعد أن لوح بيمناه تحية للحارس و حين أشرف على دار السينما، كان متأكدا من أن عرض المسرحية قد بدأ. قالت له بمرارة:

-مدينتنا العريقة صدرت الأرقام العربية إلى روما قبل ألف سنة، ومع ذلك، لا تتوفر على قاعة مسرح واحدة.

-وما حاجتنا إلى بناية مسرحية ؟

نظرت إليه قبل أن يفتح باب السيارة، قبل تسع عشرة سنة بالتحديد ، كان قد ألقى عليها التحية تحت مدرج الكلية لأول مرة. قبل ذلك، لاحظت نظراته تلاحقها على الدوام، شعرت بها كالظل لا يفارقها، جلس بالقرب منها على سور صغير يفصل الممر المبلط عن الحديقة. وقتها، أصغت إليه جيدا وانصرفت دون أن تعلق على حديثه بكلمة واحدة، لحق بها مع ذلك

ثم سار بجانبها مسافة قصيرة دون أن تهتم بوجوده، قال لها قبل أن ينصرف:

-ستكونين لي.

عاد بعد يومين ، لكنه لم يظفر بشيء غير أنه ظل مصرا، اختفى أسبوعا كاملا، ذهب أثره مع الريح كما كانت تقول لنفسها، بحثت عنه بعينيها بين الأرجاء، تأكدت أنها في حاجة إلى نظراته، زاد شوقها إليه كلما أصر على الاختفاء، تمنت لو أن عينيه تحاصرانها كل صباح في غدوها ورواحها، عاد بعد غيبته القصيرة، تفحصته جيدا بمقلتيها، بادرته بالقول على غير عادتها:

-أين كنت ؟

أول عهده بصوتها كان مثل أعياد الربيع، تملى بطلعتها البهية، أناملها فرحت بأنامله .

-ما رأيك في أن نشرب معا فنجان قهوة ؟

هزت كتفيها ، ومضيا في طريقهما .

لم تنتبه إلى مرور الوقت ، أسدل الستار على نهاية عرض المسرحية، كانت شوارع المدينة خالية إلا من بضع سيارات تجوبها.

-ما هذه المسرحية ؟ إنهم يضحكون علينا.

-على الأقل كانت أفضل من المسرحيات التي تعرض تحت قبة البرلمان.

ثم أردف قائلا:

-لقد غيرنا الأجواء، صحيح أن مسرح الهواة أفضل، لكن دور السينما لا تقبل باستضافة عروضه، للأسف، لا أحد يدعمه في البلد.

توقفت السيارة بالقرب من أحد المطاعم، جاءتها الذكريات مرة أخرى و فيها عطر منعش للفؤاد، كانا يدخلان معا إلى المطعم الجامعي مع آلاف الطلبة، لازالت تتذكر إلى الآن كيف كانا يتحلقان معا حول الحلقات السياسية داخل الحرم الجامعي، ففيها كانت الفصائل الطلابية تطرح

أفكارها وتصوراتها السياسية فتقارع الحجة بالحجة وتضحد الفكرة بالفكرة دفاعا عن مشروعاتها. وباتت تخشى عليه من الوقوع في يد البوليس الذي لا يرحم ، كان ذلك لما أصبح مناضلا في صفوف فصيل من الفصائل السياسية الخمسة الحاضرة في الجامعة، تسع عشرة سنة، أجل، تسع عشرة سنة . كانت كالحلم، مضت بسرعة مثل البرق، كلما طحن الزمن نفسه سيرا إلى الوراء كلما كان ذلك مريحا بالنسبة إليها لأنها ودت لو أن الماضي عاد، داهمهما خشوع المؤمن لما جلس أمامها حول طاولة مستديرة يعلوها منديل أبيض، ملأ صوت الملاعق والشوكات والسكاكين مسمعيهما، أصرعلى أن تأكل من يديه كما كانت تفعل في سابق الأيام، على الرغم من امتناعها الأنيق، قالت له إن منتصف الليل قد فات، فرد عليها:

-أمامنا العمر كله.

مالت برأسها على كتفه مستسلمة لشعور غامض فيه بعض الفتور، وضعت الشريط في المسجلة، انطلقت السيارة مرة أخرى، هز رأسه وهو يدندن استجابة لنداء الموسيقى، جاءته نشوة عارمة من مكان قصي، ظلت ملتصقة به، عرج على مبنى البنك ثم توقف،غادر السيارة في اتجاه الشباك الأوتوماتيكي، تركها مسندة مؤخرة رأسها على المقعد الجلدي، وضع البطاقة الإلكترونية في المكان المخصص لها، أطل بعينيه . عيناه التصقتا بشاشة الجهاز، ظل مشدودا، مرت العبارة بالشاشة عليه مرور الصاعقة .

-الشباك غير جاهز مؤقتا، شكرا على تفهمكم.

عاد إلى السيارة مسكونا بغضب جامح وهو يلعن البلاد والعباد، التفت إليها قبل أن يدير مفتاح المحرك، قرأ السؤال في عينيها ولم يلبث أن قال:

-المؤقت يعني المؤبد في حياتنا.

توقف عن الحديث برهة ثم أردف:

-من قال للجهازالقواد بأنني متفهم ؟

طوال الطريق ولسانه ينطق باللعنات والسباب، أرادت أن تلطف من حرارة غضبه، وضعت أناملها بين أنامله. انطلقت من محياها ابتسامة طفيفة كالبدر الخافت وراءالسحب وحاولت أن تلفه بها.

-لا تكن عصبيا.

-كيف لا أكون كذلك، ماذا تظننا إدارة البنك، أكباشا أم حميرا؟ أنا أدفع كل سنة مقابلا لخدمات الشباك ومع ذلك فالجهاز كثير العطل، من حقي أن ألجأ إلى القضاء.

-لن ينصفك أحد، عليك أن تذهب في صباح الغد إلى مقر البنك وتسحب النقود بواسطة الشيك.

ملأ صوت المؤذن الفضاء معلنا حلول موعد صلاة الفجر، انتبه إلى أن ضوء غرفة كريمته لا يزال مشتعلا لما فتح باب المنزل. امتقع لونه وخفقات قلبه تصاعدت، تبادلا نظرات مرتبكة، صوت غريب جاءهما من الداخل. ما بالها تتأوه في غنج ؟ وقف شعر رأسه فجأة، التصق الحاجبان وانتفخت الأوداج، هرول إلى المطبخ ثم حمل في يمناه ساطورا، اندفع نحو باب الغرفة الموصد وفتحه، كانت مستلقية على ظهرها فوق السرير حاول أن يقول شيئا لكنه لم يستطع أن يفعل، بصر فتاتين عاريتين على شاشة المرناء وكل واحدة منهما تحضن الأخرى وتتبادلان القبل على الوجنتين والنهدين المدورين مثل التفاح. تتبادلان اللمس على الفخذين الرشيقين والخصرين النحيلين، أما هي. فكان عراؤها تاما، رآها تضع أصابعها بين فخذيها وتدلك في عنف، صدرت عنها أيضا تأوهات نابعة من أعماق اللذة، أغمض عينيه لما لفت جسدها بالإزار، قام إلى الجهاز الفارز وألقى به على الأرض بما أوتي من قوة ثم صعد إلى السطح ووقف حائرا أمام الطبق المقعر، كان حانقا جدا، حمله بين ذراعيه ورمى به إلى الأسفل.

العنزة لولو

-لولو اختفت.

هكذا صاحت الصغيرة يطو وهي تفرك عينيها بحزن، سارت بين البيوت تصيح بأعلى صوتها:

-أين أنت يا لولو؟ لا تذهبي يا لولو!

امتزج الدمع بالألم، حاصر الأفق نداءها، ابتعدت عن البيوت الطينية، دخلت البساتين، ثم طفقت تنصت إلى خرير المياه، دخلت القصر المهجور، لم يظهر لها أثر، سارت يطو في اتجاه الجبل الأزرق، خيل إليها أنها سمعت صوت لولو. كانت الريح تحمل صفيرا يتموج عبر الأثير المخضب بالأحمر. خاب ظنها، الخلاء المنبسط لا يحمل أي علامة تدل على لولو، انتحبت كثيرا، بلل دمعها صخرة كانت تقف عليها لولو. أخذ الليل يزحف. عادت "يطو" دون أن تعثر على شيء.

****

كانت النخلات سامقات تقبعن تحت جبل صغير لا حياة فيه، كن فرحات بريح الربيع الشمالية، تستقبلن نسمات الصباح العليلات وتعانقن ظل الجبل الصغير بأحجاره المدورة، لم يكن أحد يزعجهن بشيء، معاول الفلاحين وحدها تهدم التربة ليسيح الماء رقراقا ينعش الجذور ويتسلل إلى عمق الأرض. عصافير قليلة أطلت على الذرة البيضاء حيث سيقانها تقف رشيقة تستقبل خيوط الشمس الصفراء، تطاولت النخلات على الجبل الصغير لكنه يسمو فوقهن دائما، أحد العجزة يقول بأنه يحرسهن منذ آلاف السنين، أما ؟لولو؟ فكانت تسير الهوينى بين أحواض البصل والنعناع وأشجار الكرم والتين، تقضم أحيانا بعض الفول الطري الأخضر المتطلع إلى سقف السماء، في هذه المرة ، جلست لولو تحت جذع أم النخلات وهي تحجب عنها

شمس الأصيل، علال مر من هنا دون أن يعيرها انتباها. أسرع الخطى. قليلة هي الأشعة الصفراء التي عانقت رأس لولو ..أغمضت جفنيها تحمي المقلتين من غبار قادم إلى الغرب وقد تطاير في الأجواء. توقف علال غير بعيد عن أم النخلات وانتظر انصراف العاصفة.تذكرالناس هنا غبار ذلك اليوم لما اشتعل الأفق حمرة قاتمة، كانت لولو قد خرجت إلى الحياة بعيد شقيقتها وسط رياح عاتية، ولسبب لا يعرفه أحد، امتنعت الأم عن إرضاعها، لا أحد يعرف لماذا كانت تنفر من لولو فلا تمنحها من لبنها شيئا، ولهذا كان الناس يضعون لها حليبا طازجا في رضاعة زجاجية تمتص ما فيها حتى الشبع، آنذاك، جاء السيد فرج بسيارة جديدة، اقتحم العاصفة معاندا، تجمع الأولاد حول السيارة الجديدة، منذ سبعة أشهر لم تقع أعينهم على سيارة واحدة. صاح علال وهو ينظر إلى العيون المتحلقة حول السيارة الجديدة:

-هذه السيارة نذير شؤم لنا، انظروا، الرياح اقتلعت نخلتين. هذا ذكرنا بعام الجوع.

ولد شخمان تقدم نحو السيد فرج وصافحه هامسا:

-أخيرا لن أتخلف عن السوق ، أما ابني فيستطيع أن يلتحق بالإعدادية.

كانت إزة قد أصيبت بألم المخاض، حدث هذا قبل هبوب العاصفة ، كان بعلها ينتظر مولوده الأول في سعادة ، ملأت إزة الدنيا صياحا. القابلة قالت إن جدار الرحم انتفخ ولابد من طبيب، مات الجنين اختناقا وماتت إزة أيضا قبل أن يحضر السيد فرج سيارته الجديدة بساعة واحدة ، تذكر علال كل هذه الأحداث ثم سار في اتجاه الجهة الشمالية. كانت العاصفة قد توقفت عن الهبوب، لولو قلقة جدا، تطاير بعض القصب في السماء. اقتلعته الريح من جذوره، تدفق الماء في الساقية نشيدا ممتعا، اقتفت أثره دون أن ينتبه إليها ، أسرع علال الخطى ولم يلتفت وراءه أبدا، الناس يذكرون عنه أشياء غريبة لأنه الوحيد الذي عارض شراء محرك ينير الدوار بالكهرباء ست ساعات في اليوم. المحرك خلصهم من الشمع وقنينات الغاز لهذا قالوا إنه يحب الظلام كالوطواط.

وقف يتأمل مدخل القصر المهجور، علال دنا في حذر ودفع الباب الخشبي المهترئ، سمعت لولو قهقهات عالية ثم طفقت عائدة تخترق النخلات بسرعة . توقفت لتمسح رأسها بجذع أم النخلات، أحد العجزة يقول إنها أسمق النخلات جميعا، هذه النخلة أنقذت الأجداد من الدمار والسبي ذات ليلة ، أحدهم طلع إلى النخلة الأم ليسرق بعضا من ثمرها الحلو، رأى اللص الصغير قبسا من النور في التل الشرقي حيث بستان عائلة السيد فرج. البستان تسقيه عين لا ينضب لها ماء، أخذ السارق يصيح بأعلى صوته، تأهب الرجال وحملوا البنادق والبارود، نفر منهم التحق بالقصر الكبير، تظاهروا بالاستغراق في النوم... تقدم المهاجمون بحذر، المكحلات عبئت بالبارود المملح، المهاجمون بدأوا بالبرج الغربي الكبير، ألقت الفتيات الصخور على مقاتلي أيت أوعلي، صاح الشيخ يخاطب الرجال:

-الأوغاد لم يحترموا الشرفاء ولا قرآن سيدنا محمد ولا أخذوا بميثاق الصلح.

قتلوا عشرين من المهاجمين ، مضى الثلث الثاني من الليل في هرج ومرج ، رفعت الدفوف والمزامير ثم أشهرت المكحلات والسيوف وتمنطق الرجال بالخناجر ، اصطف الرجال ومثل عددهم من النساء وراحوا يهزون أكتافهم وبطونهم وهم يصفقون و يصفرون، سامحوا اللص وكافؤوه حتى لا يعود إلى السرقة مرة أخرى، اعتقدوا خطأ أن فوارس أيت أوعلي لن تهاجمهم بعد أن أقسم أكابرهم بالمصحف الشريف أمام الشرفاء والجمل المسلوخ والخراف المشوية على كف الأذى عن هؤلاء القوم.

سارت لولو بعيدا عن أم النخلات، توقفت أمام السيد فرج تصيح بصوت عال غير ذي مدلول، جسد الريح مشحون بحرارة غريبة تلاقحت مع شمس الربيع، دلفت لولو أمام السيد فرج وولد شخمان ونفر من الفتية ، لم يكترث أحد بأم النخلات، وقفوا جميعا أمام القصر المهجور، سمعوها تتحدث إليه بصوت رخيم:

-علال، علال، أرجوك، اقترب مني أكثر، زدني أدخلك الله الجنة. أح، أح...

كان الخبر قد ذاع وملأ الدنيا. جلس الفقيه أحمد في غرفته العلوية وشرع يحتسي الشاي. ملأ الأطفال المسيد صياحا. أطل السيد فرج وصعد الأدراج. جلس إلى جانب السيد أحمد. لمح الأطفال يلعبون في ساحة المدرسة من النافذة. قال للفقيه وهو يحتسي كأس الشاي المنعنع:

-هذا اللعين فعلها، لم يحترم لا القرابة ولا الملح ولا الطعام الذي التهمناه سويا ، تصور، وجدناهما عاريين كأنهما خرجا للتو من فرج أمهما. أي زمان هذا ؟

رد الفقيه ممتعضا:

-ابنة أختك مخطئة أيضا. النساء يرددن دائما أنه فحل فيحكين عنه قصصا غريبة. لهذا يعتقدن بقدرته العجيبة على منح الشهوة لكل امرأة تطلبها ويتهامسن بذلك كلما عجز أحدهم عن مضاجعة عروسه ليلة الدخلة.

-من حدثك بهذا ؟

-أحد الأطفال.

-عليه اللعنة.

****

الناس أحبوا لولو ، كلما أراد أحدهم شراءها من أجل الذبح إلا ولقي معارضة شديدة. وكلما هب السيد حمو لذبحها إلا وكانت دموع الصغيرة يطو له بالمرصاد. صارت لولو تؤثث اجتماعاتهم وحفلاتهم. وهي نفسها ألفت أصوات الناس وحركاتهم وسكناتهم. كانت ترضع كثيرا من الحليب حتى اشتد عودها لهذا لم تخرج قط إلى الخلاء مع أمها وشقيقتها وأبناء عمومتها وخؤولتها. عادة ما تقوم بجولة وسط البساتين. تأكل أوراق الرمان والتين وتشرب من ماء الساقية ثم تمسح كتفها بجذع أم النخلات. وكان

المعلم الوحيد هنا يحبها كثيرا، ترقبه بعد خروجه من الفصل، تسير وراءه إلى التلة الشرقية قبل سقوط الظلام. تجلس بجانبه وهو يتأمل الأفق البعيد، تستقبل معه ريحا خفيفة كثيرا ما زارته في ليله، أمام الباب، تعودت الجلوس فترقبه وهو يخطط بقلمه الأحمر على أوراق بيضاء استباحتها أقلام ذات حبر أزرق وأسود و كان يقول لها بأنه جاء من مدينة بعيدة إلى هنا، ليس من أجّل أن يعلم الأطفال ولكن من أجل قليل من المال، كان يحدثها عن المدينة وعن الأحلام، وعند ما ينتهي من الحديث، يصدر عنه زفير حاد، لكن العلاقات بينهما ساء ت كثيرا عندما استيقظ في ذلك الصباح ووجد باب الفصل مشرعا، وقف حائرا، تقدم إلى الداخل بعد تردد، صاح بأعلى صوته:

-يا إلهي، عليك اللعنة يا لولو.

هذه لولو تقضم الأوراق الموضوعة فوق المكتب، قضمت أيضا كتب الأطفال وبعض الأوراق الملصقة على الحائط وبعض الصور، أحس بأن الخسارة باتت جسيمة. وقف مذهولا وهي تمضغ الورق وتنظر إليه ببراءة، خرجت دون أن يقول شيئا، جمد في مكانه كتمثال لا يحرك ساكنا، حاول أن يصلح بعض ما أفسدته لولو، لم ير ما سيفعله ،تنقل بين الطاولات ثم ضرب كفا بكف ، هرول إلى بيته وشحذ سكينه ثم مشى مسرعا والشرر يتطاير من عينيه، تجمهر الناس حوله مستفهمين الأمر فلم يعرهم اهتماما، كان يصرخ بأعلى صوته:

-لولو، أين لولو.؟

دنا منه حمو وحاول أن يهدأ من روعه.

-ما الذي حدث يا أستاذ ؟

-أريد فقط رأس لولو.

لا أحد مكنه منها، دلف إليه المقدم و اقترح عليه إصلاح باب حجرة الدراسة لكنه هز كتفه في استياء واضح:

_ذا أنت تهزأ مني.
-هذا إذا أردت أن تتفادى تكرار ما حدث مرة أخرى.
_لست معنيا بهذا الأمر، أتفهم ؟
_المشاكل لاتعالج بهذا الشكل.
-أنا لم أتسلم أجري منذ ثمانية أشهر حتى نبت الشيب في قاعي، هنا، أنت ممثل السلطة وستبقى معنيا بحراسة الفصل أو إصلاحه.

لمح المقدم علالا قادما، سأله عن السيارة التي تأتيه بعد منتصف الليل، قال إنها لصهره، يجيؤه من المدينة محملا بسلع ليبيعها في حانوته، لولو جلست القرفصاء ، أخذت ترنو إلى أفق مشحون بغيم رمادي متحرك، ولد شخمان لبس رداء الليل، انغمس في ري أحواض البصل والجزر والثوم، أدى صلاة المغرب قرب أم النخلات ، أرخى سمعه إلى نقيق الضفادع، جاء الليل منصتا إلى خرير المياه المتدفقة عبر الساقية، كان يتطلع من حين لآخر إلى أم النخلات ويرنو إلي شبح القصر المهجور وهو يتراقص متهاديا تحت ضوء القمر، قال له شقيقه:

-هذه ليلة مباركة.

لولو مثلت أمام ولد شخمان وشقيقه الصغير بناصر، رموشها تحركت بسرعة، امتزجت حركات المعول وهي تمهد السبيل لانسياب الماء بدمدمات ريح خفيفة، دنت من الرجلين حتى غاصت أقدامها في الوحل، قضمت قليلا من الفول الطري ثم أسرعت الخطى، ترك الرجل المعول تحت جذع نخلة واقتفى أثرها بعد تردد، اشتعل رأسه بالأسئلة، توقفت أمام حفرة لا يصلها شعاع من القمر، تنفس بعمق ليشم الهواء الخفيف، نزل إلى الحفرة، لم تكن عميقة بما فيه الكفاية، تحيط بها أشواك من جهتين، ساوره فرح عميق وقد أسر إلى شقيقه هامسا:

-لولو مباركة، كنز هبط علينا من السماء.

انحنى وقلب الصندوق الخشبي. لم يكن ثقيلا على أي حال. خفق قلبه بشدة. سرت في بدنه ارتعاشة سريعة كصعقة كهربائية عانقت الهواء. مد يده اليمنى ببطء وهي ترتعش، تحسس أوراقا لم يتبينها جيدا. ارتسمت الابتسامة العريضة على وجهه كطفل صغير عثر على ورقة نقدية. خرج من ظل القمر. قال له بناصر:

-هيه، ماذا وجدت ؟

امتقع لون ولد شخمان وعض على شفتيه، وقف شارباه إلى أعلى، مسح خيوط العرق المتصببة من أعلى جبينه المتجعد.

-بنت القحبة.

اتجه بنظره صوبها صائحا:

-لولو. عليك اللعنة يا لولو.

انصرفت غير آبهة بصراخه، وقف الرجل أمام المقدم ممتعضا. صار يقلب الأوراق داخل الصندوق، لم تكن تخص في واقع الأمر سوى الاقتراع البرلماني الأخير. أخذ يتفحص صور المترشحين ووعودهم بمحاربة البطالة والفقر والمحافظة على البيئة وتنمية المنطقة والرفع من مستوى التعليم والتطبيب والخدمات، أوراق أخرى صفراء وزرقاء وخضراء وحجرية وكستنائية كانت موجودة أيضا. قبل أشهر، تحدث الناس عن اختفائها من مركز الاقتراع. ولهذا السبب فاز صاحب اللون الأصفر المخطط بالأسود، الخاسرون طعنوا في فوزه أمام المحكمة العليا لكن لا شيء تغير، يقولون أيضا إن صداقة صاحب اللون المحظوظ لأحد كبار رجالات الدولة جعلته برلمانيا شبه محترم .

-أنظر إلى هذه الأوراق.

لم يقل المقدم شيئا، تفحصها بيده، بدا لونه ممتقعا.

-أين وجدتها ؟

-بحفرة أمام القصر المهجور.

احتبست الكلمات في حلقه . أطبق بعينيه ينظر إلى الأرض. بدا كأنه يبحث عن شيء ما.

-سأخبر القائد غدا بالأمر.

قالها ثم انصرف إلى المسجد وهو يتعثر في ظلام غادره نور القمر.

****

قال المؤذن حي على الصلاة. الشمس ابتعدت كثيرا في كبد السماء، جاءت لولو تجري وتلهث، ملأت الدنيا صياحا، تركوا الصلاة وتبعوها، اخترقوا البساتين، كان ماء الساقية ينساب بقوة. توقفوا عند خربة مهجورة . وجدوا الصغيرة يطو تتأوه ألما. تصبب العرق من جبينها، أغمضت عينيها، بالقرب منها عقربان ميتان. أسرع السيد فرج إلى سيارته وأدار مفتاح المحرك بقوة، اخترق صوت المحرك هدوء الليل، سكنة هذا الليل عجيبة، حمو أخذ حبلا كان معه وربط ساقها، أحدهم أحضر موسى الحلاقة. أفرغ مكان الجرح من الدم ثم ربطه، حمو عاد بعد أسبوع ومعه يطو وقد شفيت تماما، عادت تقفز كالعفريت في الساحة ، قال حمو لعلال في سعادة بالغة:

-لولو وسيارة السيد فرج أنقذتا ابنتي الحبيبة من الموت.

-الله أنقذها.

هزحمو رأسه موافقا وهو يردد:

_الله أنقذها.

جلس القوم في فناء منزل السيد حمو على زرابي مزركشة، قرر حمو إطعام الجميع فرحا بنجاة يطو، العجوز شرب كأس الشاي وراح يحكي للحاضرين عن القائد عياد لما أرسل إليهم شيخ أيت أوسلام ، جاء يطلب منا الانضمام إلى جيش النصارى ضد المجاهد أورحو، أورحو هذا اعتصم

بالجبل الأزرق. فقيهنا قام من مكانه وقال بأن طاعة القائد عياد هو الكفر بعينه. قرأ علينا فتاوى ابن تيمية. ولما هم شيخ آيت أوسلام بالانصراف خائبا، سقط جذع من أم النخلات فجش رأسه حتى سال منه دم أحمر التصق بالأرض. غسله ماء المطر بعد أيام. أرأيتم كيف تلفظ الأرض عنها الخونة؟ وكيف تعاقبهم أم النخلات ؟

احتسى القوم كؤوسا أخرى من الشاي المركز. يقولون إنها تذهب العطش في الفصل الساخن. علال غادر المكان في عجلة بينما لولو جلست قرب العجوز. بدا أنها تصغي إليه باهتمام شديد. وقفت أمام باب الدار حين قام الناس لأداء صلاة العشاء. تعشى القوم كسكسا بلحم المعز مطبوخا باللفت والجزر وكثير من التوابل. فرغوا من الأكل. خرجوا إلى الساحة أمام المسجد الذي لا تعلوه صومعة.أسندوا ظهورهم إلى حائط الحانوت،أحد الفتية وضع خده بين كفيه وتوجه إلى العجوز بالحديث:

-ماذا حدث بعدما غادركم شيخ أيت أو سلام ؟

-أذكر أننا جلسنا في فناء هذا المسجد، عبأ الرجال مكحلاتهم، الفقيه سي عبد القادر طلب من الشباب أن يذهبوا إلى الجبل الأزرق بالشعير والقمح والعسل، حملوا برميلا من البارود على بغل قوي، أمي رحمها الله شاركت في حفر الخندق حول الدوار مع نساء أخريات، النصارى كانوا يقتربون شيئا فشيئا. كانوا يتقدمون يوما عن يوم يوما و قد أخضعوا بلدة أو دوارا، أقسم الرجال على الموت من أجل دوارنا ونخيلنا.

صمت العجوز برهة. وقفت لولو أمامه، هزت رأسها إلى أعلى، ثم قفلت عائدة من حيث أتت، تبادل الناس نظرات مستفهمة ، قاموا ثم تبعوها، توقفت أمام القصر المهجور مرة أخرى، مالت إلى الجانب الأيمن. اخترقت ممرا يفصل الجبل الصغير عن سفح الجبل الأزرق، لاحت فسحة كبيرة مستوية كزربية لها لون واحد، قالوا بصوت عال:

-علال؟ ماذا تفعل هنا ؟

ابتسم العجوز. دنا من علال وشده من عنقه يعنفه.

-حتى طحين الفقراء المدعم صرت تبيعه لصهرك يا علال؟

نظر علال إلى لولو نظرة شزر. لم تقو عيناه على مقاومة نور المصباح اليدوي . قال له السيد فرج:

-كيف تخون الأمانة وتحرمنا من طحين رخيص ؟

ذهب معهم إلى ساحة المسجد. اتفق الرجال على تسليمه إلى رجال الدرك صباح الغد. عاد العجوز يحكي لهم بقية الحكاية كأن شيئا لم يحدث:

-فقيه آيت أوعلي جاءنا في ذلك اليوم الممطر. قال إن النصارى أهل كتاب وقد جاؤوا لإصلاح البلاد وقطع دابر الفتن. قال أيضا أن أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم. القائد عياد أرسله إلينا. لكن فقيهنا رد عليه القول. الله ولينا ومن يتخذ من دون الله وليا فقد تبوأ مكانه من النار. هاجم النصارى الجبل الأزرق. أورحو قتل منهم كثيرا من الجنود ورجال الكوم. القبطان سلفر جاء للتو من فرنسا. أمر بضرب العين بالمدافع. أورحو طلب منا مزيدا من الرجال والمؤن. مات كثير من المجاهدين في منتصف الطريق برشاشات العدو. شيخ آيت أوسلام دل النصارى على الطريق. أذكر أنني التصقت بجلباب أبي في الساحة. دب الوهن في نفوس الناس لأن المعركة كانت قاسية جدا. السيد فرج عاد في ذلك المساء من الجبل الأزرق. أقسم على أن يموت والسلاح في يده. صمت الجميع. جدد الناس قسمهم. قال إن النصارى سيصلون إلى هنا إذا سقط الجبل الأزرق. جمع الناس المؤن وتأهبوا للمعركة الفاصلة. رأيت بأم عيني جسما في السماء يصدر صوتا غريبا مسترسلا. عرفت فيما بعد أنه طائرة حربية ألقت بقنابلها على الجهة الشرقية من الجبل الأزرق. وقتها كنت قريبا من السوق. كنا نبادل التمر والملح بسلات مصنوعة من القصب وبصوف الغنم أو الشعير. قصفت الطائرة السوق ومات فيه أطفال ونساء وعجزة. دماؤهم التصقت بالأرض. التحق كثير من رجالنا بالجبل. منهم عم علال وجد ولد شمخان وشقيقي الأكبر. لما نفذت ذخيرة أورحو قال لرفاقه:

-لا فائدة من الكلام عندما ينفذ الرصاص.

دماء الشهداء لا تزال تعانق التراب في السفح الشرقي للجبل الأزرق، جد السيد فرج مات والسلاح في يده. كان في الكهف الغربي يصد النصارى عن التقدم. النصارى طلبوا من أورحو أن يسلم السلاح لكنه رد عليهم بالرصاص. صمد الرجال. آخرون استشهدوا في ذلك اليوم والبعض سلموا سلاحهم بعدما حرمهم العدو من الخبز والماء. جاعوا طويلا وعطشوا طويلا وصمدوا طويلا أيضا. طوق النصارى الكهف الغربي الكبير، أمطروه بوابل من الرصاص وبعدما فقدوا عشرة رجال حاولوا اختراق الكهف. استشهد الرجال واحدا بعد الآخر ولم يبق فيه أحد، لما سقط الكهف كان كل شيء قد انتهى. جد السيد فرج كان آخر من استشهد. شيخ "آيت أوسلام" كان يعرف الكهف الغربي جيدا. قاد الأعداء إلى حتف المجاهدين لكن الله انتقم منه فقد أحرقه رجال جيش التحرير لما وقع بين أيديهم بعد ثلاثين سنة . اللعنة على الدنيا. أولاد القائد عياد عاشوا بعد موته في نعيم. أحدهم يمتلك الآن مصنعا للنسيج وآخر للحلوى في العاصمة ، وأخته تملك في كندا شركة للصباغة أما الثالث فيعمل طبيبا في سويسرا وله عيادة هناك.

****

لا شيء في هذه البقعة من العالم يسير على ما يرام. عاد المعلم في هذه السنة ومعه زميل جديد. خلال الليلة الأولى من عودته. كان ضوء الشمعة يتراقص أمامه مثل عاهرة ترقص في إحدى علب الليل. جلس إليهما ولد شخمان، حدثهم عن فضيحة علال قبل شهر. لكن علال عاد من مخفر الدرك حرا طليقا. ولد شخمان غادرهما بعد أن احتسى كأس الشاي وأخذ معه لائحة الكتب والدفاتر المدرسية التي تخص صغيره. قال سي أحمد لزميله حين كان أحد المذيعين يردد:

-الصبر مفتاح الفرج.

-هذا القواد لم يسمع أم كلثوم تغني إنما للصبر حدود.

كان الاثنان متلازمين طوال الوقت، يذهبان إلى حانوت علال معا، ويعودان منه معا، ويخرجان إلى بساتين النخيل معا، ولكنهما يفترقان خلال أوقات الصلاة التي يحرص عليها سي أحمد، كانت الوحدة قاسية، سي أحمد، هكذا يناديه الناس منذ مجيئه إلى هنا قبل سنة، كان أول معلم يعمل في هذا الدوار منذ فجر التاريخ. عاش الناس هنا بين أحضان الجهل قرونا طويلة. قال سي أحمد لزميله:

-الوحدة مذاقها حلو بطعم صدئ.

في مساء يوم دافئ، جلسا أمام باب الغرفة التي تشبه في مظهرها الخارجي إسطبلا أو معتقلا صغيرا لسياسيين كبار، شعر بالزمن يتباطأ مع تباطؤ السرعة.ملأ صوت المذياع سكون الليل. الوافد الجديد بدا متذمرا، لقد ترك في المدينة عالما رائعا وصديقات جميلات وبارات ومكتبات وكهرباء وماءا صالحا للشرب، زفربعمق وهمس بشوق:

-اشتقت إليها كثيرا.

-هل تثق في وعود النساء؟

-نحن نتبادل الحب، لقد وعدت بانتظاري حتى أعود.

-أنا لا أثق في امرأة أو نبي.

-ولأجل من تحرص على الصلاة إذن؟

-لقد وجدت آبائي وأجدادي يصلون ويصومون ويزكون ويحجون.

تلألأت النجوم. لا شيء زاحمها في تألقها، سيطر الهدوء على المكان، قام من مكانه يتحسس اللحم المقدد المعلق على حبل يربط الباب بجدار الفصل الدراسي. فغر فاه وصاح بأعلى صوته:

-فعلتها القطة اللعينة..

-لا بأس.

-ولد شخمان لن يذبح شاة قبل أسبوع.

الخلاء المنبسط يحكي حكايات حدثت قبل عشرات سنين. يوحي بقسوة لا مثيل لها. همس الريح يأتي بأبيات من قصائد الطبيعة الحزينة. شوق الليل يمنح سلاما زائفا لمريده الهارب من صخب الحياة. حدث زميله بنبرة مستسلمة:

-الجمود أسوأ ما في الوجود.

-بل هو نهاية الوجود نفسه.

لما عاد سي أحمد من المدينة على متن سيارة السيد فرج، قال لرفيقه:

-ستشرب في هذه الليلة حتى ترى الكلب حمارا.

احتضن قنينته. جلسا قرب القصر المهجور. هنا حكايات لا تنتهي من فصول الحياة الرتيبة. الصراصير تصدر عنها نغمات مسترسلة لا تلبث أن تنقطع لتستأنف من جديد. صفيرها ملأ القلب غما. تحدث عن أيامه المتشابهة كالتوائم. حتى يوم الأحد كان له طعم الأيام الأخرى.

-تصور أنني جئت إلى هنا ومعي شهادة عليا في الفزياء النووية. لو كنت فرنسيا أو يابانيا لكنت الآن أشتغل في أحد المختبرات بميدان تخصصي.

-تذكر أن الكثيرين ممن يحملون شواهد عليا معطلون.

-قبل قدومك كنت أتحايل على التاريخ.

-كيف ؟

-كنت أتخيل يوم الأحد أنني في السينما أو ملعب الكرة حتى استأنست باللعبة المموهة . قرعا الكأس وفي نفسيهما شيء من المرارة ذوبتها كؤوس في ليل مثخن بالجراح.

-أنت تحب عبد الحليم كثيرا.

-لأنه عاش يتيما مثلي آسي أحمد.

-في صحتك.

لولو جاءت مسرعة على غير عادتها. وقفت أمامهما تجترما أكلته في النهار. مالت برأسها نحو المدرسة.

-لولو. هذه أنت أيتها اللعينة ؟

لم تكترث لما قاله سي أحمد. انطلقت تعدو، تبعها الرجلان وهما لا يلويان على شيء. ولد شخمان كان يسقي بستانه. مرا مسرعين بالقرب منه دون أن يلقيا عليه التحية.لمحا دخانا ينبعث من النافذة. ضرب سي أحمد رأسه براحة كفه.

-اللعنة. الشمعة.

-يا للكارثة!

التهمت النار الحصير والأغطية، رمى بالأوراق والكتب خارجا، كانت معلقة على الحائط. جاء السيد فرج وبعض الفتية والفقيه وولد شخمان. التصقت النار بسروال سي أحمد. لهذا غادر الغرفة للتو وهو يتلوى ألما، تجمع الناس حول الغرفة، حاول بعض الفتية حمل ما تبقى من الأثاث والأواني خارجا. انفجرت قنينة الغاز. وقف الاثنان بعد ما طار السكر من رأسيهما الثقيلين بنشوة لذيذة ، قنينة الغاز اخترقت سقف الغرفة إلى مسافة عالية. لمعت النيران في السماء.

-الحمد لله، لقد أنقذنا أوراقنا ووثائقنا.

-ضاع ألبوم الصور.

-سي أحمد، والآن، أين سنسكن ؟

-وأين سنسكن ؟ في حجرة الدراسة طبعا.

-لم لا نكتب طلبا إلى النيابة لبناء مسكن جديد لنا ؟

-أنت تهذي ، سيكنسون بالطلب قيعانهم.

****

لولو خرجت باكرا في ذلك الصباح. دخل التلاميذ الفصل وقد لاحظوا أن مساحته قد تقلصت من الداخل. لاحظوا إزارا يقسم الحجرة شطرين. سمعوا صوت قنينة الغاز مشتعلة فوقها طنجرة تنبعث منها رائحة البيصارة. أطل أحدهم من النافذة المكسرة. لولو تسير في اتجاه الطريق الغربي، قال لصديقه ساخرا بأن لولو تسير إلى الجبل الأزرق لتبحث عن الكنز الذي يعتقد الناس بوجوده أسفل الكهف الغربي..

لم تعد وسط النهار كما لم تعد ليلا. أخذت الصغيرة يطو تصيح محتجة على غياب صديقتها المفاجئ. ذهبت في الصباح إلى سي أحمد ..قالت له لولو لم تعد منذ صباح الأمس. أحس بشيء غريب يراوده. تبع الطريق الغربي. يطو شدت على يده بقوة. الجبل الأزرق بدا أمامه ماثلا. اقتفى أثر أقدامها إلى أن اصطدم بصخرة عملاقة. قال ليطو عودي أدراجك.الناس قالوا إن الذئب أكلها. بعضهم اعتقد أن الضبع فعل فعلته. يطو انتحبت كثيرا. سي أحمد لم يعد أيضا. مضى اليوم الأول والثاني والثالث دون أن يظهر له أثر. كانت يطو تصحو صباحا من النوم فتفتقد صديقتها الغائبة وتجهش بالبكاء.

استغرب الناس ما حدث للولو وسي أحمد. المقدم نفسه نقل الخبر إلى القائد. مفتش اللغة العربية سأل عن سي أحمد وعلم نائب الوزير بالأمر. اختنقت العبرات في حلق يطو. شمس الظهيرة جعلت العالم غريبا لأن الجو احتقن بريح محملة بغبار دقيق. الوافد الجديد لم يستطع أن يتحمل الوحدة القاسية. كتب استقالته وسلمها للمفتش لحظة وصوله ثم سؤاله عن الزميل المختفي.

وقف أمام أطلال غرفته المحترقة. سقط عمود خشبي كان دعامة للسقف. كان ضجيج محرك السيارة يثير فضول الأطفال. علال مال إلى حمو قائلا:

-هل سيبقى أطفالنا بدون معلم ؟

تحركت السيارةوتركت وراءها غبارا متطايرا بينما أخذت الشمس تسحب خيوطها. يطو سارت إلى الهضبة الشرقية كأنها تحاول معانقة الأفق الذي يحاصر التلال البعيدة. ألقى نظرة على البساتين وأم النخلات. كان متأكدا من أنها النظرة الأخيرة. كانت يطو تصيح:

-لولو... عودي يا لولو.

حـــــــوار

سرب من الطيور يهاجر بعيدا، يبتعد في قلب السماء مثل حلم يتمدد في ذهن الإنسان. ليس كل ما يلمع ذهبا... أعطيت لنفسي أكثر من حقها في حمل الأعباء والذاكرة صارت مثل نعش لوقائع غير منطقية فتهفو النفس إلى رنين نداءات بعيدة كل البعد. اللعنة، يستحق الإنسان الشفقة طالما أنه لم يستفد من الخطأ الأول. يرنو إلى أمل كاذب لا يستحق أي اهتمام، فتسخر نفسه من طي صفحات الماضي البعيد..

أنا يا حبيبتي سقيت كل العالم بروحي الماردة، وفي يدي لمع الرعب كشوق ملتمع في سجن الليل. اغترفت الألم من بين أناملك الغضة وفي عينيك سكبت روحي ومن شفتيك استلهمت حقائق التاريخ فطرت على جناح طيور الحب إلى أوكار العشق المحترقة ...كي أكتوي. أجل. ليس هناك أعظم من تلذذ الألم حيث الحب وكر لطيور الأسى وحيث صقور العذاب تنهش قلبي الميت. هناك بعيدا... أضنتني ثواني الانتظار القاسية... كنت مثل عاشق طروادة أحرق مدينته من أجل عيون هيلينا... ألم أكن مستعدا لمحاربة كل العالم من أجل عينيك ؟ ولما قالوا:

-العالم ضدك أيها العاشق ؟

قلت:

-وأنا ضد العالم.

العالم جبار لا يرحم، لكن قلبي عنيد كالصخر. كبير كالحياة، وفي قلبي حملت البندقية والسيف كما حملت نار العشق والحياة. وفي قلبي اختزنت كل العذابات وحب جميع الناس بدون استثناء، ها السماء أصبحت خالية من الغيوم الرمادية العاصفة، ولكن سنين الانتظار طوت الحلم وأقبرت العشق والحب.

الآن سافرت بعيدا بعدما صودرت مني كل الأماني وصارت الحياة مرآة للغم ملتعج بصبابة اليأس... الناس يحملون الأحلام... الأحلام كبيرة... النفوس ضاقت بأصحابها خارج حياة مقفرة ولذلك أخذ الحالمون يبحثون عن المفاتيح التي تتيح لهم أن يخرجوا بواسطتها من أنفسهم ...الأحلام كسرت الأقفال فأباحت للناس أن ينطلقوا دون أن يسرحوا في ساحة الحياة التي ما برحوا يلعنونها من أعماق أعماقهم.

قلت لك أريدك قوية كالموج عنيدة كالجبل حتى يكون ابننا مثل أمه الماردة. ابتسمتِ في إشفاق علي فقلت لنتركه يعيش الحنان والعطف ولما قلت يجب أن يكون ولدنا راعي غنم وعالما كبيرا سخرتِ من قولي وقلتِ هذه فكرة عاشق مجنون لكنك لا تعلمين أنني أريد ابني كالجبل الذي تنكسر على سفوحه أمواج الريح الساخطة. أريده يسخر من الذين يخرجون من أنفسهم بمفاتيح صنعوها من معدن الحلم الرخيص...

تمضي الحياة كقطار على سكة طويلة وتستغرق الرحلة زمنا من الشقاء والسعادة. الحلم يأتي على أطباق من نور. يتوارى زمنا ويعود ليخرج النفس من صفاء عهود ولت دونما شعور بالسعادة وفي نفس كل منا شر مستكين يضرب بجذوره في الأعماق يحاول أن يخطف منه نور السعادة دون أن يرف له جفن الحذر وضلوعنا تسحقها نشوة ظفر كاذب على عدو لا وجود له، هكذا نستيقظ يا حبيبتي على مفاجآت لم نضرب لها حسابا لمجرد أننا نقول لا، وهذه ال" لا "غالبا ما تجلب لصاحبها كابوسا مزعجا لا حلما جميلا كالآخرين. يصبح الفؤاد زنزانة والضلوع قضبان سجن لأمثالي.

****

أنت يا عزيزي شمعة تحترق، كجمرة تشتعل ليستدفأ الآخرون من حولك... ولكنك في الحقيقة لا تحرق إلا نفسك، أشعر بالقشعريرة دائما حين أتذكر أن الحياة مجرد حلم جديد بالنسبة إلى من يهب نفسه للبحث عن المباهج، أنت تحاول أن تخطف الرماد من جبينك كي تذره على الآخرين،

هل تذكر يوم كنت محطمة القلب، هناك في رحلة السفر البعيدة الشاقة، تخلفت عن الركب فانتشلتني من يم الضياع، كنت أرفض الحياة، على باب قلبي وضعت أقفالا حديدية حتى أمنع ريح الهوى من أن تعصف بحياتي الهادئة غير المتزنة. لا يعرف أي إنسان متى يحب ولا من سيحب ولا إلى أين سينتهي الحب، أنت يا حبيبي مندفع في كل شيء، تلاحقك اللعنة، أمواج الرماد تتهاوى إليك مثل سيف مسلط على رقبتك، فأنت لم تستطع أن تؤمن بأن العالم قد ضاع من بين يديك وبأن العالم منذ زمن بعيد قد غرق في بحر من الأوهام الممتدة على بساط من الخوف، أعرف أنك كنت تبحث طوال حياتك عن امرأة ما، تكون بحجم حبك لها، ولما التقينا، كنت تعيش لحظات نصر مزيف ...أما أنا، فكنت مثل كتيبة مندحرة، تعلقت بأي أمل للهروب... ففي هذا الوجود نصارع الكآبة بالفرار إلى قدر آخر، وقد كنت ملاذي . للأسف الشديد... ألم تجدني هائمة على وجهي، يائسة من نفسي، أسير دون اتجاه كعاصفة تئن حدتها شيئا فشيئا ؟ نورك كان يهديني إلى ضآلة عمري، فأرى الطرق بوضوح، تعلمت أن قوة الإنسان تكمن في عقله... انتظرت معك مولودا، لكنك... لم تكن في الموعد... طرقت أبواب قلبي الواحد تلو الآخر، وعلى الرغم من أنني كنت أصدها بإحكام إلا أنك كنت تحمل معك السلاح المدمر... لقد ألهمتني القوة التي افتقدتها منذ زمن بعيد فصرت أسير على الأشواك غير مبالية بالألم والنحيب.

****

أعرف يا عزيزتي سرّ كآبتكِ ...فالإنسان الذي لا يعرف ماذا يريد، يعيش كأفعى رقطاء تتلون حسب فصول الحياة ...إنني لا أبغي اللوم أو الرأفة بأحد، الأيام تمضي كلعبة مغشوشة تستغرق منا كل الوقت ولا يربح في آخر المطاف إلا طويل النفس قوي الشكيمة، أحب كل الناس، لهذا تجدينني كئيبا دوما، أريد لابني أن يكون عاشقا مثلي ...أحلم بالبدر يرسل ضوءه

الخافت لينشر الأمن على الجميع وأجعل أوتار قلبي منبعا لنغم حزين يطلق الموت في ربوع الجوع. أحلم بأن تصير يداي بندقية تطهر الأرض من الأرامل واليتامى. فيطير غصن الزيتون في السماء كبركة إلهية... لكن أحلامي تجعلني منبعا لسخافة أسطورية. تقولين سأذهب معك في حلك وترحالك وها أنت تتعبين في أول الطريق ولا تستطيعين عصيان الأفق الرمادي. شفتاك تكتنزان سحر الأنثى... منذ سنين كثيرة. وأنا أبحث عن امرأة كاملة... تظل أطياف هذه المرأة تلاحقني في حلم يقظتي، تقول لي إن الرعب سيلمع هناك من حيث لا ندري، إننا نجري سويا فوق أحصنة الموت، ننشر الخير ولون الخبز في كل مكان، نقتلع الجوع من البطون الخاوية. هكذا، يرفع الناس رؤوسهم شامخة. أما أنت، فتعشقين فقط لون الربيع. تدفعين بنفسك في حضن الرغد الفاجر وتقولين إن الإنسان يعيش عمرا واحدا فقط فتكنسين دماغك من كل أمل إنساني... ابننا. تجعلينه إلها صغيرا للسطوة. حاولت أن أجعله شرارة للجمال والقوة كي يقهر عدو الإنسان الأول. أردت ابننا شرارة تنبع من شعور الناس بعالم يجب أن يتزحزح من مكانه إلى خارطة أخرى حيث تكثر السعادة كنبات الفطر وهي تنتشر في الربوع المنبسطة فوق أيام الربيع الزاهرة. هذا الطفل يقتات بعيدا من فضلات الآخرين، يمشي حافيا ويجوع، يلتهم أوراق الصحف. يتيه في فضائحها، يكنز الرهبة في جوفه. وينتصر كلما دقت طبول الحرب... الأجساد العارية تنتشر في كل مكان كهياكل جافة... من بين الأفخاذ يسيل دم العذارى في بحر الوهم ...الحب بضاعة في سوق الكدر والمجتمع الكئيب مثل ظلمة الليل. تضيع نفسي غضبا كلجة البحر. ليس هناك من يحلم بالبندقية. ليس هناك من يحلم بالحلم الجميل نفسه. أصير كلعبة القدر في مصير الموت. حيث لا أعلم كيف ستنتهي اللعبة... ليس هناك أقسى من أن يطعن الإنسان في ظهره حيث كل شيء يستهلك نفسه.

****

لآخر مرة أقول لك سوف تتعب في هذه الحياة كثيرا حين تصر على ألا نكون مثل الناس وحين تصر أيضا على ألا يكون جميع الناس مثلنا. في الحياة تتورد الخدود من كثرة حب وهمي... بعض الخدود فقط. قليلون هم الذين يؤمنون بأن الحب... مثل الله، خالد لا يموت... هل أصارحك ؟ طيب... لقد جعلت من حبك معركة حياة أو موت... فماذا تختار ؟ قد ولى زمن عنترة وسيف بن ذي يزن، زمن الفوارس ولى. حوتهم مقبرة التاريخ إلى غير رجعة . لكنك لا تزال مصرا على التسلح بالوهم والحلم ...

دائما تريد الخروج من نفسك لتتقمص أدوارا لا تناسبك... أرجوك. لا تزعج نفسك بما لا يعنيك. لقد صنعتني من جديد. لكنك تدمر في كل مرة جزءا من صنعتك. أنت تنتظر مني أشياء أكبر من طاقتي، إنني أنثى وأنت لم تفهم بأن عليك أن تتغير، لأن العالم قد تغير... إنني أهوى جنونك وسطوتك في ميدان الحياة. حبنا التمع في ظل النهار... لقد بدأ يخبو... لكنك لا تعلم أبدا. بأنني سأظل في حاجة إليك. فما قولك ؟

فـــاس

البورجوازيون الكدح

نظر إلى الرصيف . قطع عزوز الطريق بصعوبة، حيا رفيقه ثم جلس إلى يمينه حول الطاولة المستديرة.... شرع يلعن السيارات و أرباب السيارات ومصانع السيارات، كانت شاحنة المجلس البلدي القديمة رمت من جعبتها بدخان أسود كثيف أزكم الأنوف القريبة منها ، الرواد وضعوا كفوفهم على الأكواب ليحموها من تلوث قادم ، الآخرون سدوا أنوفهم بمناديلهم ، مرت عاصفة الدخان الأسود بسلام و قد خلفت وراءها وجوها ممتعضة وسيلا من الشتائم كانت من نصيب السائق و مشغليه و آبائهم و أجدادهم ... عزوز فرك عينيه بقوة ... ترنح على الكرسي و قال:

-هل نشترك معا في ثمن ورقة لوطو أخرى ؟

-عزوز ... هل معك ثمن فنجان قهوة يا عزوز ؟

-الأفضل إذن أن نقتسم بيننا ثمن براد شاي.

انغمس الفتيان في حل الكلمات المسهمة ، جاء النادل ببراد الشاي المنعنع و معه جريدة الصباح ولمحهما يشطبان على بعض الكلمات، بعد انصرافه، نفث عزوز دخان سيجارة كازا ثم ناول ما تبقى منها صديقه... عاد النادل ليسألهما عن مقيريطة مادامت الساحة الجامعية مشتعلة بمواجهات طاحنة بين الشرطة و الطلبة. خمن الجميع أنه يواجه كعادته قوات الأمن بالحجارة ، قال لهما متبرما :

-على الطالب ألا يشغل نفسه بالعراق و الصومال و مشاكل الواق واق.

-لقد حذرناه مرارا... رأسه صلب مثل طوار هذا الرصيف...

-مقريطة طيب وودود، لكنه للأسف لا يستحق المصير الذي قد يؤول إليه ... يوما ما سيضعونه في بئر لا قرار له ، ذلك ما أخشاه.

****

جاء الناس مهنئين عزوزا و أحمد الصباغ، استقبل أحمد شمس الصباح بتفاؤل شديد، وعندما غادر عتبة باب المنزل، وقع نظره عليها ... كانت جميلة في بهاء ربيع به خضرة كثيرة وقليل من ألوان البنفسج و الطيف ... ذلك كان مدعاة لأن يحس بانشراح غريب ، فقال لنفسه:

-لقد صادفت فتاة جميلة ... لذلك، لابد أن يكون يومي جميلا!

توقفت السيارة الفارهة أمام مدخل الحومة، أحمد قال للسائق بأن عزوزا قابع في مقهى الأمل، لمحه يدخل السيارة، ابتسم متحسسا السجائر في جيبه، منذ شهور طويلة و هو يبيعها بالتقسيط ... ابتعدت السيارة في الزحام .... قال الضابط لعزوز بعد أن غادرا السيارة إلى بهو الفندق:

-منذ مدة طويلة لم نلتق.

-منذ وفاة جدي....

-ثلاث سنوات مضت، كم هي ثقيلة مسؤولياتنا، تصور أنني لم أعد أجد الوقت الكافي لحك شعري...

إحدهن غمزته، نظراتها حركت الكهرباء في جسمه ، الْتفَتَ الضابط يمينا ثم قال :

-لا تكترث بها....

حدثه عن شقيقة زوجته الطالبة بمعهد الطب، ناوله سيجارة شقراء لم يتذوق مثل طعمها قط، تأمل جمرها ، اهتز قلبه لما حدثه عن هدى ، خياله داعبها في لحظات قصيرة، فناء الفندق ضاق به، هذا لأنه لم يستوعب جيدا ما يدور حوله، هدى أثثت خياله منذ زمن بعيد ، توقفا في الشارع الكبير بعد أن غادرا مقصف الفندق ذي النجمات الخمس، أكبر شارع في المدينة هو أجملها بلا ريب ...كان مركز المدينة يعج بمظاهر البذخ الزائفة، دفع الشقيق الأكبر ثمن بذلة فاخرة و حذاء بني يلمع في ضوء النهار....

-منذ مدة و هدى تسأل عنك!

-هدى؟!

-أجل ، هدى.

-لكنها تجاهلتني قبل شهرين....

-عزيزي ... أظنك لا تجهل دلال بنات هذه الأيام ... ذلك أنَّهُنَّ عصبيات و مزاجيات...

-و لكنها...

قاطعه الضابط مستفهما:

-أين ورقة اللوطو؟

-مع مقريطة!

-و لكن...

-مقريطة جدير بالثقة...

غمغم الضابط و لم ينبس ببنت شفة، ضرب موعدا مع عزوز في يوم آخر... حين عاد إلى الحومة، جاء مقريطة... غطت جبيرة من الجبس الأبيض ساعده الأيمن، جلس كالعادة يرشف من فنجان قهوته المسائية... سأل نفسه أسئلة تافهة بحجم عقل قبرة، تنفس الهواء بعمق... لمح مصباح الشارع... أحمد الصباغ كان صامتا، منذ طرده الألماني و هو يلوذ بالصمت إلا لضرورة قصوى، يعرفه الإثنان بذلك الذي يردد كلمات غير مفهومة مع أنه يقول دائما بأن المغربي باع جدران شركة الصباغة لألماني أشقر، عيناه زرقاوان ثم يركن إلى الصمت، ينظر إلى السماء و ما يلبث أن يتذكر شيئا هاما، لقد باع المغربي الشركة و باع معها أحلام العمال، مقريطة حدث أحمد عن وقائع الأمس كمن يود أن يخرجه من يم صمته العميق، قوات الأمن هجمت بعنف لتشتت اعتصام الطلبة المطرودين ، هو لا يفهم لماذا حدث الاصطدام ، الطلبة رشقوا قوات الأمن بالحجارة و هؤلاء استخدموا الهروات و الغازات المسيلة للدموع .... جرح الكثيرون ... تحدثت الإشاعات عن رجل أمن فقئت عينه ...طلبة كثيرون كسرت عظامهم اللينة...

-ها قد عدت.

-ها قد عدت... ؟!

قالها بسخرية ثم أردف قائلا:

-فما الذي تغير إذن ؟ .

-ماذا سنفعل بالستمائة مليون؟

ابتسم مقريطة و هو يلتهم الجريدة بعينيه ثم رفع رأسه ووضعها جانبا إلى يساره ، صاح بأعلى صوته:

- يالك من خبيث!

عزوز عاد بعد غيبة قصيرة...اشترى علبة سجائر أمريكية، شقراء بالطبع، أخرج من جيبه ورقة نيبرو وأومأ إليهما بالصعود إلى الطابق العلوي من مقهى الأمل. انبعث دخان الحشيش فملأ الفضاء... احمرت عينا عزوز قبل أن يسترخي، أما أحمد فقد سرح بذهنه بعيدا ، كلما دخن حشيشا كلما ازداد هدوءا، رأى ضوء المصباح يخفت... عادوا إلى الجلوس وراء الواجهة الزجاجية ... بدت مصابيح الشارع ممسوخة مثل البنايات المشوهة القائمة على الرصيف الأخر. صاح أحمد مغتبطا بعد أن غمز مقريطة بطرف عينه:

- يبدو أن مفعول اللوطو قد سرى عميقا.

فمال مقريطة في اتجاه عزوز:

- ما هذه الأناقة المفرطة ؟

- شقيقي فعل بي ما ترى عيناك.

- تعني الضابط...

- أجل ، بشرني بأن هدى تسأل عني...

- هيا.. ناولني سيجارة شقراء... أنت تحلم بهدى، و نحن نشتم أمريكا كل صباح و نملأ أفواهنا الناقمة بسجائرها الشقراء....

سبح مقريطة في بحر خيال عابر، عزوز يعتقد بأن المال يمنح للنفس خشوعا كالذي تمنحه الصلاة للمؤمنين في محارب العبادة، النجوم بدت

ساعتها متعبة ، أحس بها مقريطة باهتة أو هي لم تكن في يومها المعهود مثل فانوس لم يعمل منذ مدة طويلة.

أشرق وجه عزوز. فابتسم و صدره منفوخ، تحسس موضع جيبه وصمت قليلا في استرخاء ثم قال:

-لن نضطر بعد اليوم إلى أن نقتسم بيننا ثمن السجائر والقهوة و براريد الشاي...

لم يستطع مقريطة أن يكتم الضحكة ، ضحك ملء شدقيه ، لمس ربطة عنق عزوز بألوانها المتناسقة مع لون المعطف ولون الحذاء ... شقيقه علمه أن يختار الألوان المنسجمة... الأسود مع الأصفر. والأخضر الفاتح مع الأسود. تعلم أن الأسود يصلح لجميع الألوان... باتت النظرات العميقة رسائل مشفرة تنتقل ذهاباً وإياباً عبر الأثير بين الفتيين، توقفت النظرات بمجرد ما أن لمح مقريطة شابا يسرع الخطى قادما نحوه من محطة الأوتوبيس ، نهض من مكانه مرتبكا. ساد الصمت على الطاولة، انصرف الشاب بعدما همس بأمر ما في أذن مقريطة .... وضع مقريطة يده على رأسه و صاح متوترا:

- اللعنة .... لقد طار الحشيش من رأسي...
- ما الأمر ؟
- عشرة من رفاقنا اعتقلوا ... أنا الآن متابع ...
- ملعون أبو السياسة...
- لهذا طلب مني الرفاق أن أختفي مؤقتا ريتما تهدأ الأمور.

كانت الحياة تبدو تافهة في مثل الحيرة التي تستبد به ، استحوذ الخمول فجأة على الثلاثة، أخيرا انتبه إلى حجم الألم الذي يعتمل بداخله... عاد إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل... أسنانه اصطكت بردا و ارتجفت ركبتاه، أمه حضنته... لأول مرة تفعل ذلك مذ كان طفلا، عرف أن رجلين من البوليس السريين جاءا ليبحثا عنه هنا قبل ساعات... عمته ابتسمت، تقول

أن البرد مضر بصحته و يمناه لم تشف بعد . لم يخف دهشته وهو يجول بنظره بين أرجاء المنزل الصغير. بادرته العمة قائلة قبل ان يصافحها:

- أين تأخرت ؟
- مرحبا عمتي... طالت غيبتك كثيرا.
- أعرف أنك تعاتبني لهذا السبب.
- لابأس .
- الحياة صارت صعبة...
- أجل . بيد أن القلوب باتت أصعب يا عمتي...

دار بينهما حديث عادي، لم يدر كيف انتابه شعور مفاجئ بأن حياته عادية مملة . استغلت العمة الفرصة و حذرته من السياسة. لجارتها شقيق يهوى السياسة لم يظهر له أثر منذ عشر سنوات، بحثوا عنه في كل مكان فلم يجد البحث شيئا... هي ترى في السياسة حقلا مليئا بالألغام تشتت جسد من يدوسها بقدمه، أو على الأقل . تشل من حركته، هو يراها لذة خطيرة تمارس عليك، فممارستها ضرورة ليكون الإنسان إنسانا بالفعل. عادة ما يجول بخاطره اعتقاد بأن طريق هذه اللذة محفوف بالعلامات ذات الخطوط الحمراء وهو لا يعترف بسياسة تعترف هي الأخرى بخطوط حمراء، ضاقت نفسه قليلا بالمكان، حتى مزهرية الورد لا تدخل إلى نفسه بهجة و لا حتى شعورا بالهدوء... الجدران تسخر منه... صار الآن بورجوازيا كادحا رأسماله مائتا مليون لأنه انتقم من الليل بمزيد من الحلم اليقظ...

ينبغي له أن يحزن كثيرا حتى يحلم كثيرا مادام الحلم عاديا كما هي الحياة عادية و قد يصير الحلم مملا في حياة مملة... تقلب كثيرا في الفراش قبل أن يسافر به النوم إلى جزر الأحلام القابعة وسط محيط من المتعة... الهراوة هوت على رأسه . ضحى بيده اليمنى حتى لا تتهشم جمجمته.... تفادى ضربة البوليس الأخرى و قفل عاديا في اتجاه رفاقه ...

أمطروهم بالحجر حتى يتسنى للمصابين الانسحاب بعيدا. أخذه رفاقه بعد المواجهة إلى مستشفى بمدينة قريبة ، كان الكسر بسيطا لحسن الحظ ، فدان بالشكر لشجرة العرعار إذ حمته من مطاردة رجال الأمن...

أخذ أحمد منه سيجارتين شقراوين ، سأله عن ساعده الأيمن ، ألح عليه أن يختفي في أي مكان .... اقترح عليه الاختفاء عند جده في البادية ريثما تهدأ العاصفة ، أحمد هذا افتقد ماضيه كثيرا ...يقول دائما لمقريطة بأن ماضيه الجميل أفسدته جليلة ...المالك الجديد للمعمل بشعره الأشقر لم رحم حبه ... هذا ما ردده دوما على مسمعه. جليلة جاءته في كامل زينتها ... كان ذلك بالنسبة إليه أكذوبة أخرى كاللواتي سمعها منها في مناسبات كثيرة ، قالت له آن الأوان لنفترق ...حدثها بالذي مضى ... هيه ....ثم ماذا بعد ذلك ؟ ....لعله حنين زائف كحلم رديء.

****

ألح الضابط على عزوز أن يسلمه ورقة لوطو... أحيط عزوز بحفاوة عجيبة من جيرانه و معارفه ، كثيرون سألوا عنه ... صاحب مقهى الأمل رفض أن يأخذ من الثلاثة ثمن مشروباتهم ...حذره الضابط من مقريطة... عزوز ابتسم في سره تحت سقف تخترقه أنوار بيضاء وحمراء.... هدى دوخت عقله، عند ما أقبلت اهتزت شرايينه ، شعر بأذنيه تستقيمان وعيناه تجحظان، جسدها هز كيانه، ذاك الامتلاء في الركبتين و المؤخرة صدمه، حدث نفسه بحسرة.... ماذا لو كان مكان تلك الثياب الضيقة... ؟ كان سيلفها بجسده كما يلف الحبل كيس السكر... هذا الطيف العابر أمامه وشم في الخيال... رأى هدى تصعد إلى السماء في ثوب أبيض شفاف، ها الوردة بين يديه شامخة في زهو... تمنى لو أن مقريطة كان بجانبه ليشهد عليها و هي تمنحه ابتسامة دافئة، مقريطة لم يرتح إلى وجودها، قال ذلك عندما رآها أول مرة، ولم يكف منذ ذلك الحين عن انتقادها عندما أسر له محذرا :

-إنها ليست من ثوبك. أنت بدون مال، هي لن تلتفت إلى حارق مثلك، هذا الصنف من النساء. يأخذن كل شئ و لا يعطين سوى جسد نتن.

جاءه منشرحا هذه المرة. قال أريد مفتاح غرفة... نظر إليه الآخر مندهشا. قبل أن يسأله:

- لكن لماذا؟

- هدى ستتشرف بالحضور...

- طيب سأتدبر الأمر غدا مع أحد أصدقائي من الطلبة...

لما أدار المفتاح، خفق قلبه بشدة، كان شعرها الطويل لامعا. تسارعت أنفاسه بقوة مثل دقات قلبه ....جلست على حافة السرير ، طلبت منه ان يغلق الباب ، على الحائط علقت صورة عملاقة لرجل ملتح يضع في فمه سيجارا كوبيا، سألت عنه عزوز الرايبوك اخبرها بأنه سمع الأصدقاء يسمونه " ارنيستو تشي غيفارا."

- ومن يكون ؟

- لا أدري، ربما كان ممثلا أمريكيًا شهورا!

ثم صمت قليلا... أحضر قنينة كوكا كولا من الخارج و معه حلويات وفول هندي، طلبت منه أن يضع شريطا في آلة التسجيل ، صوت مارسيل خليفة انبعث و هو يحث على الثورة و الثأر.... لم تعجبها الأغنية فقالت متبرمة:

- ألا يوجد غير هذا النوع من الأشرطة....؟

أسرت له بنجواها، عندما ضمها إلى صدره، خيل إليه أنه يسبح في ماء عينيها. برقة أسرت عينيه، تركت شعرها يغطي وجهه ، قال لها اسمعي دقات قلبي، إنه يخفق بحبك... حدثته عن الأحلام، قال بأنها لا تعني له شيئا.... هي ستتخرج طبيبة... التصقت به... قال لها سأفتح لك عيادة بعد التخرج.... علا صدرها بالنشوة العارمة ، و عندما تعرت رفع رأسه إلى السماء متضرعا إلى الله أن يغفر له خطيئته العظمى و كلما رأى مؤخرتها تهتز إلا طار

لبه. همس بالحب ، همست بالحب.... بينما الجدران كانت تهمس بعبارات الود... و السخرية، بالمقهى حكى كل شئ لصديقه، غادرهما أحمد مسرعا، حين لمحها تنتظره أمام مدخل الحومة ، بالكاد غالب نفسه و قال ممتعضا:

- ما الذي أتى بك؟
- اعتقدت أنك نسيتني.
- طيلة ثلاث سنوات لم أنس بأن رب المعمل الجديد شرد حلمي...

صمت قليلا ثم أردف:

- كما شرد أحلاما أخرى.
- ما كان مقدرا تحقق.
- لنذهب إلى مقهى بعيدا عن الحومة...

شاخ الناس، عزوز حدث مقريطة بهذا قبل قليل .... أحمد حرك عينه ببطء، كان رأسه مسمرا إلى السماء حين تاه أحمد في الزحمة بعيدا عنهما، أيقول عزوز الحقيقة فعلا؟ أصحيح أن جليلة تحن إلى النوم على صدره؟ الأيام وحدها فضحت شيخوخة الناس، عزوز ردد هذه العبارات مرات كثيرة في الآونة الأخيرة .... أما هو، فلا يزال يتساءل عن مكمن الحقيقة في كل هذا، هي ببسمتها الهادئة حاولت ان تقيم فيصلا بين الذي مضى و الذي سيأتي.... هو حدثها عن مشاريعه في المستقبل، قالت له مئتا مليون تضمن للمرء حياة كريمة... أجابها بابتسامة غامضة متسائلة، الحاجبان تقلصا إلى الأسفل كمن ينقب عن شئ في حجم إبرة، لما عاد إلى الحومة همس في أذن مقريطة:

- أرجوا أن تمدني بمفتاح غرفة.
- ما الأمر؟
- القحبة ، تحن إلى النوم على صدري.
- معقول؟

- أجل.
- لك ذلك.

ما أن أتم حديثه حتى تقدم نحوه رجلان ببذلة رسمية سوداء، كانا فارعي الطول ، عريضي المنكبين. أمسكا بمقريطة من ذراعه اليسرى ، قال أحدهما بصوت خفيض:

-اتبعنا بدون مشاكل...

شعر أحمد بالخوف ، ارتجفت أواصله قليلا. أي مصير سيؤول إليه حال مقريطة... و المئتا مليون ؟ أي ذكاء مجنون هذا ؟ تسمر جامدا في مقعده كصخرة قديمة. طار صوابه وهما يقودانه نحو السيارة السوداء الفاخرة، هؤلاء القوم قلوبهم مثلما هي بذلهم وسياراتهم الرشيقة. اللعنة... طار الحشيش من رأسه و تبخر.... الحومة استقبلت صباحا جديدا على إيقاع غريب. رددت الألسن كثيرا من الأقوال... اخذ الضابط شقيقه عزوز في سيارته و مع ذلك لم يخرج عزوز من قلقه. لم يقل شيئا على الرغم من أن هدى ظلت تتأبط ذراعه طوال المسافة.... وعند كل منعطف، كان يقينه يزداد رسوخاً بأن النار التهمت الأوراق النقدية الزرقاء. بل إنه رأى مقريطة يحترق معها...

****

كانت قوات الأمن تطوق قاعة المحكمة الابتدائية، سار عزوز بجانب أحمد و جليلة. كان أحمد يقول المرة تلو الأخرى:

- لقد حذرته مرارا ... لكنه لم يسمع النصيحة ، للسياسة رجالاتها.
- مسكين .... لكن ....و المئتا مليون....
- اصمت ، هل صدقت فعلا أننا ربحنا؟

سأل القاضي مقريطة عن الأفعال المنسوبة إليه وهي تكسير زجاج السيارات والاعتداء على موظف أثناء تأدية عمله والإخلال بالنظام العام في حالة تلبس و التحريض على الشغب.

-أنت ترى سيدي القاضي كيف كسروا عظامي. فكيف لي أن أقوم بما ورد على لسانكم؟

ضجت القاعة بالضحك ، المطرقة أعادت الهدوء إلى القاعة الفسيحة ، المحامون قالوا إنها محاكمة سياسية غلفت بطابع جنائي ، مال أحد الطلبة إلى القاضي متسائلا:

- ماذا لو وجدت بيضا فاسدا في الطعام المقدم إليك ؟

- ليس هذا موضوع حديثنا.

- لقد أكلنا بيضا فاسدا، و لما صرخنا بالاحتجاج علقونا في المخافر كما تعلق الخرفان في المجازر. المحاضر الموضوعة أمامك مزورة ، لذلك ، فمحاكمتكم لنا محاكمة غير عادلة ، إنها محاكمة سياسية.

تحسس القاضي صلعته و أطبق بعينيه ينظر إلى الأسفل، رفع نظارته الطبية عن عينيه ...تحسس أحمد أنامل جليلة لما غادرت هيئة المحكمة القاعة قصد المداولة. هذه البناية شهدت حركة غير عادية، و حسب ما روى الشاوش لبعض معارفه. فإن رئيس الجلسة تلقى هاتفا من علية القوم فكانت الأحكام جاهزة .... قال متأثرا:

- ماذا لو أنبأتك أننا لم نربح سنتيما واحدا... ؟

التفتت نحوه كمن صعقها تيار كهربائي.... تأملته جيدا، سكن الجمود قسمات و جهها النابض بالمفاجأة:

أتعني؟!

- أجل ... مجرد دعابة ....فقط.

- لكن لماذا؟

- حتى نرى الناس عراة ..أو شيوخا...

لاح الصمت من عينيها كمطرقة ثقيلة هوت على رأسها... امتنعت عن قول أي شئ... صمت أطبق على المكان.... شخصت العيون نحو المنصة الخشبية، نطق القاضي بسنتين سجنا نافذة في حق معتقلين، و سنة و نصف في حق الآخرين بما فيهم مقريطة ... المحامون صرخوا بأن الأحكام كانت مجحفة و بأن ما جرى لم يكن محاكمة، بل مهزلة ... اخترق عزوز الصفوف ودنا من المنصة ، تفحص وجه القاضي بنظرة مندهشة ثم قال:

- و لكن مقريطة سيدي لم يسرق أموال أحد ليستحق كل هذا العقاب.

ضجت القاعة بالضحك، أمره رئيس الجلسة بلزوم مكانه أو الزج به في السجن يوما كاملا إذا لم يمتثل للأمر.تقدم الحراس نحو قفص الاتهام و أخذوا المعتقلين و كبلوهم بالأصفاد. انطلقت الأصوات من الحناجر... كانوا يرددون:

- القمع لا يرهبنا و الموت لا يفنينا، صوت الجماهير يحيي النضال فينا...

آخرون حملوا خارج القاعة شارات النصر، رددوا جميعا بصوت واحد:

- معتقل يا رفيق ، مازلنا على الطريق.

انطلقت السيارة محملة بالمعتقلين و معها ثلاث سيارات مصفحة في اتجاه السجن المدني ، شعر أحمد بدوار في رأسه... سأله عزوز عن نصيبه من الملايين الستمائة، لم يأبه به، صرخ بأعلى صوته:

- ضاع مقريطة .... ضاعت ملاييني....

ابتعد عن شقيقه الضابط ... هدى لم تصدق الخبر ...ذهبت مسرعة تاركة شعرها يعبث به الهواء، عزوز ابتعد أكثر وهو يجري و يصيح:

- مئتا مليون، تبخرت مع الأحلام.

كان أحمد متعبا، أسندته جليلة حتى بلغا الحديقة...وضعت أناملها على جبينه ثم استلقى على ظهره مغمض العينين....

- أحمد ، أريدك أنت ..... بدون ملايين....

- لن أكون ذا نفع....

صار ت الطريق الآن معبدة أمامنا ....بإمكاني أن أساعدك بالمال....

أخرج ورقة لوطو من جيبه . لم تكن طبعا رابحة....أخرج أيره و سقاها ببوله أمام الملأ ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء وكانت جليلة تسنده.

الفهرس



وُلد سنة 1975 بتازة.

عضو جمعية اللقاء المسرحي بأصيلة .

يمارس التدريس بالتعليم الأساسي بنفس المدينة.

صدرت له مجموعة قصصية موسومة

بـ"ذكريات من منفى سحيق". عن دار الوطن بالرباط.

سنة 1997 .

الثمن :
30 درهما